روايات أحلام

جيسيكا سكوت

دموع الليل

www.elromancia.com

مرمورية

روايات أحلام

www.elromancia.com

دموع الليل ـ جيسيكا سكوت

عندما اختفت بيتي.. شقيقة سيلينا، في مكانٍ ما من المغرب.. لم تضيع وقتها، وبدأت فوراً البحث عنها.

قال لها ضارب الرمل: «لا تخافي الصحراء! ولا القدر الذي ستحاولين نكرانه!»، ولكنها خافت الصحراء وخافت الأسمر المتكبّر اكثر بكثير..

لماذا تتحمل بيتي كل هذا لمصلحته؟

وهل ستقع سيلينا أيضاً تحت سحره؟

تصدر عن دار الفراشة

www.elrmemah.com

١ ـ قلب رقيق

ـ أنا آسف مدموزيل، أتمنى أن أكون مفيداً أكثر لك.. ولكن..

ابتسامة لويس بورشيل كانت حزينة، وإشارته واضحة، وهو ينظر إلى الفتاة الانكليزية التي تتطلع إليه بتوتر عبر الطاولة العريضة..

وتمكنت سيلينا من الابتسام، مع أن خيبة الأمل كانت ثقيلة على قلبها، ثم وقفت، ومدّت يدها للفرنسي الشاب اللطيف:

ـ لقد كنت لطيفاً جداً مسيو.. ولقد أخذت الكثير من وقتك...

ـ ولكن. لا!

وأكد لها هذا بسرعة، وقد بدت في نظرته إيماءة أسف مختلطة بالإعجاب، لو كانت في غير هذه الظروف لتأكد لها أن سحرها لا ينقصه شيء في نظر هذا الشاب القادم من بلاد «الغال» ولكن في تلك اللحظات كانت عيناها الزرقاوان مظللتان بالقلق، نفس القلق الذي يجعل فمها الدقيق ينفرج بطريقة بدت جذابة، رغم أنها لم تكن تعلم...

وقطب لويس، ثم تحرك نحو باب المكتب المكيّف الواقع في أحد شوارع القسم التجاري من «كازا بلانكا». وقال:

ـ لحظة واحدة.. هل سألتي قنصلكم.. مدموزيل؟

ـ بالأمس... لقد سألت الجميع.. ولا أعلم أين أبدأ البحث. يبدو أن شقيقتي قد اختفت في الهواء، ولا أستطيع فهم هذا..

بدا عليها أنها كانت تحب وظيفتها هنا، وتحب كازا بلانكا.. فلماذا تتخلى عن كل شيء فجأة و... وتختفي؟ ودون أن تبلّغ أحداً أين هي ذاهبة؟ والدتي قلقة لدرجة كبيرة. لهذا قررت أن أجيء إلى هنا لمحاولة إيجادها، قبل أن أبدأ عملي الجديد وأرتبط، ثم أتأخر إلى أوقات العطلات.. ولكنك مشغول.. ولن أقاطع عملك أكثر.. شكراً لك لتفهّمك، وخاصة أن شقيقتي لم تكن متفهمة عندما تركت العمل عندك فجأة، دون إنذار.

ـ لم يكن لهذا أية نتائج. وأنت لست شقيقتك.. وهذا من دواعي سروري...

وفتح لها الباب، وانحنى، وتابع قائلاً:

ـ ولكن.. أرجوك، إذا كان بإمكاني أن أساعدك بأية طريقة بينما أنت هنا، فلا تترددي في الاتصال بي.. أتعديني؟

وهزت رأسها بالإيجاب، وابتسمت شاكرة مرة ثانية، وبعد لحظة عادت إلى الجو الحار في الخارج الذي أحست به أكثر بعد البرودة في مكتب الشاب. المكيف الهواء.

وبدأت سيلينا سيرها نحو الفندق.. مفكرة: وماذا الآن؟ وأين؟ أوه.. أين هي بيتي؟ لماذا لم تقل لهم إنها ستترك وظيفتها، وظيفة عانت الكثير لتحصل عليها. وحجبت الظلال عينا سيلينا من جديد.. لو أن أباهم لا يزال موجوداً، لكان عرف ماذا يفعل، وكيف يجد بيتي، كان الوحيد الذي استطاع أبداً أن يجعل بيتي تصغي لصوت

العقل، والذي كان يأمر لتطيعه بيتي.. وبالطبع لا تستطيع أمهما أن تفعل هذا، لقد كانت غير فعالة بالنسبة لابنتها المدللة.

وأخرجت من حقيبتها آخر رسالتين تلقتهما من شقيقتها.. الأولى لا تشير إلى شيء، فقط شقتها الجديدة الصغيرة والتي زارتها سيلينا، لتجد فيها ساكناً جديداً لا يعرف حتى اسم الساكنة القديمة، وفيها إشارة إلى اسم لويس بورشيل، وذكر عرضي لصديقة تدعى سوزان وتملك فيللا رائعة جداً في الرباط.. وهذا كل شيء، وما تبقى من الرسالة يصف سواراً من الفضة على شكل أفعى اشترته من السوق..

الرسالة الثانية هي التي كانت مقلقة، والتي دفعت والدتها لتكتب رسالتين، لم تتلقي أي رد عليهما، وهكذا قررت سيلينا أن تطير إلى المغرب.. وكانت بيتي قد كتبت:

«أكتب لكم هذه فقط، حتى لا تكتبوا لي إلى عنواني القديم بعد الخامس عشر من هذا الشهر لأنني سأنتقل. لقد حظيت بفرصة عظيمة لوظيفة جديدة، مؤقتة. ولكن تستحق أن أترك وظيفتي الحالية لأن التعويض في نهايتها كبير جداً، وسأعيش بترف دون أن يكون عليّ أن أفعل شيئاً.. وكذلك سأسافر.. وبصراحة يا عزيزتاي، سأكون حمقاء لو رفضتها.. على كل.. لن أستطيع إعطاءكما عنوانا تكتبان إليه لأنني لا أعرف اين سأكون ومتى.. لذا فكرت أن أعطيكما علماً.. وإذا قررتما أن تكتبا لي، فسيكون ذلك عن طريق «الأميركان اكسبرس» لأسبوع أو اثنين.. فكرا بي دائماً.

المحبة.. بيتي».

لا توجد أية اشارة إلى ما قد تكونه هذه الوظيفة الرائعة، وأين ستكون، والأكثر أهمية.. مع من؟.. وذعرت السيدة بريسلي.. على الرغم من اقتناع سيلينا أن بيتي قادرة على الاعتناء بنفسها.. فلماذا

www.elromancia.com

كل هذه السرية؟ ولماذا لا تزال رسالتي أمها دون استلام في «الأميركان اكسبرس»؟ الأمر ليس مزعجاً.. بل مرعباً...

وعادت سيلينا إلى الاسم الذي في الرسالة الأولى. سوزان. وئيلا في الرباط. هذا قليل جداً لتنطلق منه. لو أنها تعرف الاسم الكامل لتمكنت من تعقب سوزان المجهولة، وربما تجد بعض الأثر لمخططات بيتي.. أو ربما بعض المعلومات التي قد تساعدها في هذا التعقب.. ولكن الاسم الأول فقط..

وتنهدت سيلينا، ولم تلاحظ أن قدماها قد قادتاها في اتجاه مختلف تماماً عن مقصدها. وانتبهت فجأة، وأفلتت منها شهقة عجب صغيرة، وهي تنظر إلى الزقاق الضيق الغارق بالشمس، الذي كانت تسير فيه. ومرت بها امرأة ترتدي العباءة السوداء ذات الغطاء على الرأس، ولا يبدو سوى عينيها من فوق حجاب أسود وراقبها بصمت من عتبة أحد الأبواب رجل يرتدي الجلابية البيضاء، ينظر إليها نظرة فضولية..

واسرعت سيلينا الخطى في الزقاق، وهي لا تعلم كم مضى عليها هائمة هكذا، ووصلت إلى نهاية الزقاق، لتخرج نحو شارع أعرض منه قليلاً، وأخذت تنظر يميناً وشمالاً، بقلق. لا بد أنها أصبحت الآن في وسط المدينة القديمة.. وفي اللحظات التي استدارت بها محاولة إعادة تتبع خطواتها من حيث أتت سمعت أصواتاً ورأت الأولاد يتراكضون.

ودون إرادة منها تحركت نحو المجموعة الصاخبة على مسافة قريبة من الشارع، حيث صدمها ما رأت...

الشارع الصغير ينتهي إلى ساحة، ينتهي إليها زقاقان آخران أكثر عتمة.. خرج من أحدهما حمار تحت حمل ثقيل بشكل محزن.. ليقع على ركبتيه، وانتشر المحصول في السلتين الكبيرتين فوق

التراب. وتجمع حوله ثلاثة رجال يسبّونه ويلعنونه، وارتفعت أيديهم بالعصي وهبطت على الحمار، وتجمع الفتيان للمساعدة.

ووقعت قبعة سيلينا القش البيضاء عن رأسها وكشفت عن شعرها ذو اللون البني الخفيف.. ولكنها تركتها وأسرعت إلى مكان الحادث.. ودون أن تهتم بما إذا كانت صيحات احتجاجها الغاضب ستسمع أم لا.. أو تفكر بعواقب عملها... اندفعت إلى الأمام وأمسكت العصا من يد الرجل الذي يرتدي الجلابية القذرة والطربوش الأحمر.

وصعقتهم الدهشة قليلاً، وجعلتهم يتوقفون عن ضرب الحيوان المسكين.. ولكن هذا لم يدم سوى لحظة قبل أن ينهمر فوق رأسها سيل من الكلام العربي. وبدأ الصبية يتصايحون ورفع الرجل ذو الطربوش يديه في الهواء.

- ارجوكِ.. ايتها السيدة الإنكليزية! ماذا تفعلين؟ إنه حيوان كسول.. عنيد.. يأكل كثيراً!

وأشار إلى بطنه، وأخذ يضحك لرفاقه.. فصرخت به:

- هذا الحمار مريض، ويكاد يموت جوعاً.. وكيف تتوقع من حيوان أن يعمل لك دون ان تهتم به؟ ... انظر!

واشارت برعب إلى خاصرتي الحيوان الغائرتين وإلى القروح وإلى الجلد الذي يبرز عظام الصدر.

واقترب أحد الصبية ومنها ومد يده وصاح بها:

- بقشيش.. الآنسة الإنكليزية.. تعطيني بقشيش.

وأخذ باقي الصبية يتصايحون بينما كانت سيلينا تحاول أن تبعدهم عنها.. واستدارت إلى الرجل وقالت يائسة:

- هذا الحيوان بحاجة للعلاج، إنه مريض جداً ولا يستطيع أن يعمل...

كان الجميع يتحدثون دفعة واحدة، مما أغرق احتجاجاتها في الصخب..

وأخذت التعابير الضاحكة على الوجوه تتغير، ومد الرجل ذو الطربوش يده إلى العصا التي انتزعتها من يده، وأخذها قائلاً:

ـ سترين يا آنسة.. سيعود إلى العمل من جديد.. سنجعله يتحرك..

وأخرج من جيبه علبة كبريت وأشعل ناراً، وأخذ يحمي طرف العصا فوقها، وهو يضحك ويلمس العصا ليرى إذا أصبحت ساخنة.

وحدّقت به بذهول، ثم فجأة، فهمت ما ينويه، وغمرها الرعب.. وتذكرت... إنهم يسخنون عصا، أو حجراً.. ثم يضعونه على الحيوان المنكود... وهذه الطريقة لها اسم، ولكنها لم تستطع تذكره، ووجدت صعوبة في تصديق أن هذا الرجل يمكن أن يفعل هذا الشيء الغير إنساني: ولكنها الآن عرفت.. وصدّقت..

ـ لا.. اسمع.. سأدفع ثمن علاجه.. سأجد بيطرياً.. لا بد أن هناك بيطري هنا.. ولكن لا تجرؤ..

ـ الآنسة الإنكليزية تدفع؟ الآنسة الإنكليزية مجنونة.. الهذا الحيوان العديم النفع.. الـ..

ـ إذا كان عديم النفع.. سأشتريه: كم يساوي؟ لن أقف أتفرج وأنت تسيء معاملته.. كم تريد؟

وتلاشت الضحكات.. الرجال والصبية شكلوا دائرة من حولها، والوجوه السمراء الداكنة كانت قريبة منها، ليرتاح بالها..

ـ هل لدى الآنسة الانكليزية كثير من المال لشراء هذا الحيوان الثمين؟ إنه يساوي العديد من الدراهم.. كم ستدفع الآنسة الإنكليزية؟

كم ستدفع؟ ما يساوي حمار مريض بائس في السوق؟ والذي يبدو في هذه اللحظات وكأنه غير بعيد عن مكان الراحة الذي قدّره الله للحيوانات.

وهزت سلينا رأسها، لم يكن لديها سوى ثلاثة أو أربعة جنيهات، وما تبقى من أموالها المحدودة كان على شكل شيكات سياحية في الفندق. وفتحت حقيبتها، وهي تعلم أن عملها هذا، حماقة، وأخرجت حقيبة المال.

وراقبتها العيون وهي تحاول أن تعدّ المال غير المألوف...

ثم حرك الرجل ذو الطربوش يديه قائلاً:

ـ الآنسة الإنكليزية لا تستطيع أن تدفع.. ليس لديها المال الكافي.. ولكن هذا..

ومد يده العجفاء التي تشبه المِخالب ليمسك بمعصمها الذي ترتدي فيه ساعتها.. وأجفلت، وتراجعت خطوة إلى الوراء، محاولة تخليص نفسها، وضحك الرجل..

ـ السيدة تعطيني الساعة، وتأخذ الحيوان الثمين.. السيدة حصلت على الصفقة...

ـ لا...!

وأحست فجأة بالرعب.. وقاومت.. لن تستطيع أن تتخلى عن ساعتها الذهبية، آخر هدية لوالدها، ولكن بدا أن ليس أمامها خيار آخر. وأخذت جمهرة الصبية تلوح بالأيدي بانتصار بعد أن أصبحت الساعة الذهبية تلمع في يد الرجل، وأطبقت دائرة الوجوه الداكنة عليها من جديد. تنوي خطف حقيبتها التي تتمسك بها بقوة..

ـ السيدة الانكليزية ستشتري البضائع مع الحمار.. لقد خسرنا الحيوان الثمين.. ولن نبيع البضاعة في السوق.. ونحن فقراء. لا بد أن الآنسة عندها رحمة الله في قلبها و...

www.elromancia.com

ونظرت سيلينا من حولها، وقد أدركت الورطة التي زجت نفسها بها بكل غباء. سوف يلاحقونها ليتنزعوا منها كل ثمين تملكه ولا امل لها بالخلاص. ونظرت إلى الأيدي الممدودة، وأحسّت بالتصميم المحيط بها، وصرخت صرخة صغيرة، وحاولت أن تكسر الطوق من حولها، ثم تغيرت صرختها الصغيرة إلى صراخ قوي وقد داست على شيء وفقدت توازنها لتقع على ظهرها، ولكن الأيدي التقطتها.

وحاولت تخليص نفسها، وإبعاد الناس عنها، ثم ارتفع صوت آمر حاد وقوي فوق الضجيج، وتبخرت الأشكال الكريهة من حولها.

وأقبل إليها، ظل طويل،واقفلت قبضة قوية على ذراعها. وقال نفس الصوت المهيب بحدة:

ـ هل اصبتي بأذى؟ هل سرقوك؟

ـ أنا.. أنا.. لقد أخذوا ساعتي.. ولكن أنا..

وأخذت سيلينا نفساً عميقاً، وهي تترنح.. ونظرت.. لتتأكد من وجود حقيبتها، ثم هزت رأسها:

ـ لا.. ولكن هل ذهبوا؟

وخطت خطوة سريعة إلى الأمام، وهي تنظر في الساحة المهجورة، الفارغة من كل شيء ما عداها ومنقذها، ثم، جذبتها اليد التي تقبض على معصمها لتقف مستقيمة.

ـ لحظة واحدة أيتها السيدة الصغيرة.. أنت بالتأكيد لن تلاحقي هؤلاء الحثالة... أو أن تتصوري أنك سترينهم، أو ساعتك ثانية؟ أم أنك مجردة من العقل؟

ـ لا.. لم أكن أنوي هذا اطلاقاً..

وخرجت سيلينا من ذهولها، ونظرت للمرة الأولى إلى وجه الرجل الذي لا تزال قبضته تمسك بذراعها. وما رأته أوقف رجفة الغضب على شفتيها.

نظرة سوداء مسيطرة، من أروع عينين واجهتهما حتى الآن كانتا قاتمتين لدرجة أنهما تبدوان سوداوين في البداية، لكن المرء يستطيع أن يلاحظ فيهما لون البندق تحت إطار من الرموش السوداء. بشرته ناعمة وقاتمة، وقد تلونت بلون الماسوغوني.. مما أثار في مخيلة سيلينا أطياف سراب رمال الصحراء والرياح المجنونة تحت الشمس الساطعة. ثم بدا لها فجأة أن انكليزيته كانت دون أخطاء، وبذلته الصيفية الأنيقة، وتصرفاته الناعمة تبدو مجرد قشرة زائفة تخفي وراءها قساوة أحست بها على الرغم من حالتها المتوترة، هذا الرجل هو إما حليف لا يلين.. أو عدو عديم الشفقة...

ـ لقد سألت إذا كنت قد تأذيتي..

وتماسكت قليلاً، مبتعدة عن أفكارها.

ـ أنا... لا.. أنا بخير شكراً لك. أترى، كل ذلك بسبب هذا الحمار. إنه مريض وأردت أن أوقف سوء معاملتهم له و....

وحاولت أن تضع كلامها في جمل مفهومة، واستدارت لتركع أمام الحيوان الممدد على الأرض. ثم بدرت عنها صرخة اضطراب ونظرت الى الغريب...

ـ أنا.. أظن أنه قد مات!

ـ أتعنين أن هذا هو سبب تدخلك الغبي الذي نتج عنه...

ـ وماذا كان عليّ أن أفعل؟ لم أستطع الوقوف متفرجة على هؤلاء القساة... أتدري ماذا كانوا ينوون أن يفعلوا؟ كانوا سيـ..

ـ أنت انكليزية بالطبع.. واهتمامكم بالحيوانات مشهور.

ـ ليس رديئاً للدرجة التي تصل اليها معاملة بعض الناس لها.. اوه.. انسى الأمر.. يجب أن أجداً أحداً يـ...

ـ لا تزعجي نفسك.

www.elromancia.com

اللمسة على كتفها كانت رقيقة، ولكن ذات سلطة، والصوت هادىء بلهجة آمرة.

ـ لا بد أيضاً أن روح النكتة عند الانكليز هو عمل وطني...

والآن لو سمحت لي أن أتولى هذا الأمر.. سأجد ذلك الشخص..

السخرية كانت بادية في ابتسامته الخفيفة.. واحمّر وجه سيلينا فأضاف:

ـ سأثبت لك أننا لسنا جميعاً متوحشين، وأذكرك أن ما من بلدٍ في العالم يخلو من تصرفات قد لا تعجبنا.

وتحرك مبتعداً عنها ووقف عند الحمار، وفمه متشدد قليلاً، ثم ارتاح..

ـ لا.. الحيوان لم يمت، انه ينتهز هذه الفرصة النادرة لديه لينام قليلاً..

ونظرت غير مصدقة، لتجد أنه على حق. وأخذ جنبي الحمار الهزيلين يعلوان ويهبطان بشكل تدريجي، وتحركت إحدى أذنيه في حركة خفيفة.. وشعرت بالارتياح.. وللمرة الأولى ابتسمت لمنقذها.

ـ اوه... أنا مسرورة جداً.. ظننت أن المسكين... ولكن ماذا سنفعل به؟ لا نستطيع تركه هنا... أتعلم أين يمكن..؟

ـ تعالي معي.. ولا تهتمي...

ـ ولكن...

وترددت. وقد رأته يتحرك مبتعداً بخطوات ثابتة، ثم ركضت تلحق به.. من المؤكد أنه لن يتركها الآن لتتعامل مع المسألة بمفردها؟ ولكنه سار بضع خطوات ووقف أمام بوابة مزخرفة في الجدار.

وفتحها، وانتظر، متوقعاً منها دون ريب أن تدخل. وخرج من بين أعمدة المنزل الأندلسية الشكل، طيف طويل يرتدي ثوباً أبيض،

وهرع نحوهما. وجهه النحيل الملتحي وقور وهو يحيي الغريب باهتمام خاص وينحني بأدب لسيلينا.

وتمنت لو أنها تعرف اللغة التي يتكلم بها الغريب بسرعة، وقادهما المراكشي الطويل إلى الداخل نحو غرفة واسعة مفروشة بالعديد من الوسائد والستائر الحريرية. وجلست على المقعد الخشبي العريض الممتد على طول أحد الجدران، وقد بدأت تشعر بالارتباك. ودخل احد الخدم، وأشار المراكشي إلى الغريب، الذي تكلم مع الولد بلهجة آمرة. وفي هذه الأثناء دخل خادم آخر يحمل صينية واسعة من النحاس وضعها على طاولة في منتصف الغرفة. وانكب المراكشي عليها. وأخذ يقيس اغصان الشاي من وعاء فضي.. ليضعها في وعاء آخر طويل العنق.. وكانت الماء تغلي في وعاء آخر على موقد صغير من الفحم، ثم وضع بضع عروق من النعناع الطازج على الصينية.. وارتفعت الرائحة الزكية الى أنف سيلينا، بعد أن فتح مضيفها الوعاء واخذ يضع قطع السكر فيه من وعاء فضي آخر. وأخيراً صب السائل الأخضر في أكواب زجاجية صغيرة، وقدم واحداً لسيلينا وهو يبتسم.

وأقبل الغريب ليجلس قرب سيلينا.. وقال بصوت خفيض:

ـ عندما تنتهين من ارتشاف هذا، عليك القبول باثنين آخرين، وإلا ستخالفين العادات.

ـ إنه منعش جداً، وانا عطشى.. أنت لطيف جداً..

ـ إنه من دواعي سروري مدموزيل.. هل تتمتعين بزيارتك لبلدنا؟

ـ كثيراً..

وكانت مسرورة لتبادل الحديث بلغتها.. وابتسم لها قائلاً:

ـ هذا جيد.. يجب أن لا تسمحي لهؤلاء الأنذال الذين صادفتيهم لسوء الحظ أن يعطوك انطباعاً سيئاً عن زيارتك.

www.elromancia.com

واخذ كوبها ليعيد ملأه، وقدّم لها طبقاً مليئاً باللوز وحلوى صغيرة على شكل الخوخ. ووجدتها لذيذة. ولكنها اخذت تقلق لمضي الوقت. وظلال القلق لا يمكن أن تخفى لمدة طويلة وهناك ايضاً مسألة الحمار، فلن تستطيع تركه لقدره. وسرقت نظرة إلى ساعتها، وانتبهت أنها لم تعد في معصمها. ونظر إليها المراكشي متسائلاً، ولكن الغريب لم تفته تلك النظرة إلى معصمها.. فوقف.

- أخشى أن لا أستطيع وعدك باستعادة الساعة، ولكن ربما نستطيع أن نطمئنك على الذي سبّب فقدانك لها.. تعالي..

ومرة أخرى كان متوقعاً منها أن تتبع هذا الغريب الذي بدا وكأنه في بيته.. وقادها إلى ممر طويل عالي الجدران، ثم إلى باحة أخرى، ليست مزخرفة كالتي دخلت اليها في البداية، وعبرت من خلال درب مقنطر إلى اسطبل. وهناك وقف الحمار يمضغ كومة من التبن، وقد أزيلت السلاسل عن ظهره، وإلى جانبه وعاء مليء بالماء. وقال لها الغريب ساخراً:

- أرأيتي.. لقد استعاد عافيته.

وتطلعت إلى المخلوق القانع الآن، مدركة أن تعليقاً ما يجب أن يصدر عنها، ولكن غير واثقة من الشكل الذي يجب أن يكون عليه. يجب أن تكون ممتنة، ولكن شعورها بخصوص منقذها كان يدفعها باتجاه خاطىء.. فقالت:

- اجل.. ولكنه لا يزال ضعيفاً، وهناك تلك القروح على اضلاعه.

- أوافق معك، ولكن دون شك ستعوّضين هذا له..

وللحظة لم تجب، وقد لاحظت تلك الروح المرحة الساخرة في عينيه القاتمتين، وارتفعت زوايا فمه وهو يشير إلى الحمار.

- حسناً.. ألم يكن هذا ما دفعك لامتلاك هذا المخلوق؟ اخبريني

ماذا تقترحين أن تفعلي كخطوة تالية؟ هل ستأخذينه معك إلى انكلترا؟ يجب أن تراجعي أولاً القوانين الصحية التي تنطبق على استيراد الحمير من المغرب إلى بلادك.

- ولكنني لا أستطيع..!

وزاد الفزع من حدة تعابيرها، واومأت ايماءة يائسة:

- لا أستطيع أن آخذ حماراً معي إلى انكلترا..! لا أعرف ماذا... يا للسماء.. لم أقصد أبداً أن.. أن أشتريه بالفعل ولكنني فقط لم أرغب في أن يعاني...

- التصرف غير العملي عادة يورّط الإنسان أكثر مما قد يكون تصوّر.. كما أعتقد أنني سأكتشف. ولكن الوقت أصبح متأخراً.. تعالي.. سأعيدك إلى فندقك..

- اجل.. ولكن..

وقاطع احتجاجها، وأشار بنفاذ صبر.

- في الوقت الحاضر سيبقى الحيوان هنا تحت رعاية سي خليل، وسنبحث المسألة خلال ذهابنا..

واستدار مبتعداً.. وصدمت سيلينا بالافتراض المتعجرف بأن عليها أن تتبعه. وقالت ببرود:

- لا حاجة بك لأن تزعج نفسك أكثر من هذا.. أستطيع العودة بنفسي إلى الفندق، أما بالنسبة للحمار، أدرك أنه أصبح من مسؤوليتي الآن وسأفكر بحلٍ ما...

واستدار فجأة مما أجفلها... وقال:

- لقد كنت حمقاء ومتهورة بما يكفي ليوم واحد. أليس كذلك؟ أرجو أن تحاولي الإحجام عن أي أي تصرف غير عاقل بعد الآن؟ أم أن ما يدفعك هو الكبرياء التي في غير محلها؟ هل أنت متكبرة بشكل

www.elromancia.com

لعين حتى أنك ترفضين مساعدة أحد لك؟

وأطرق قليلاً، مظهراً بأنه ليس هادئاً أبداً، ثم قال ببرود:

ـ هيا بنا نترك سي خليل، قبل أن ابدأ بالتمني من كل قلبي لو أنني تركتك تحت رحمة الثعالب الوقحة.

والتزمت بالصمت مطيعة له، وودعت سي خليل الوقور الوجه، ورافقها عبر الباحة الصغيرة ثم عبر طرق ضيقة ملتوية إلى حيث كانت تقف سيارة فخمة بيضاء، تكاد تقفل مدخل الطريق.. ينتظر أمامها سائق شديد السمرة يرتدي بذلة بيضاء، وأسرع إلى الباب الخلفي وفتحه لسيلينا، بعد أن استجاب لتعليمات سريعة من الغريب.

ولاحظت سلينا نوعاً من الشعارات على باب السيارة، ولكن لم يكن لديها وقت سوى لنظرة خاطفة قبل ان تصعد إلى داخل السيارة الفخم من الجلد الأزرق الفاتح.. ودخل حارسها ثم أغلق الباب، ولاحظت فوراً برودة السيارة من الداخل، لا بد أنها مكيفة، ونظرت خارج النافذة لترى أين تذهب بهما السيارة، وبدا لها أنهما قد سارا مسافة بعيدة، وبدأت الوساوس تغزو رأسها حول ما إذا كانت السيارة تقصد فندقها، عندما تكلم مرافقها لأول مرة منذ دخلا السيارة.

ـ هل لاحظتي.. لقد سرت مبتعدة كثيراً عن فندقك.

وكانت السيارة تخفف من سرعتها عند تقاطع طريق، عندما تعرفت سيلينا على صف المحلات والحدائق التي تقع على مقربة من فندقها... وشعرت بالذنب لعدم ثقتها به فقالت:

ـ آسفة يا مسيو.. لم أكن أدرك كم ابتعدت. أشكرك لإعادتي إلى هنا. و... ولإنقاذك لي من هؤلاء الرجال.

ـ هذا لا شيء... في الواقع أنا سعيد لأنني تأكدت من صحة رأيي حول الفتيات الإنكليزيات.

ـ وما هو هذا الرأي.؟

ـ انهن عنيدات، متطلبات، غريبات الأطوار ومتهورات.. في كل شيء ما عدا الحب.

وارتفع رأس سيلينا بحدة. مواجهة نظرته المحدقة وقالت:

ـ لا.. مسيو.. إذا كنت تحكم على أساس ردة فعلي.. ستكون بعيد جداً عن الحقيقة في حكمك.. فهذا شيء لا نعرفه تماماً..

ـ لا؟.. تبدين واثقة جداً؟

ـ أنا واثقة تماماً..

وخرج من السيارة ومد يده لها ليساعدها على الخروج..

وحاولت سيلينا ان تظهر هادئة ومتعالية، ووجدت ذلك مستحيلاً وهي ترفرف بعينيها من جراء قوة أشعة الشمس، بعد نور السيارة الخافت.

وناولها قبعتها التي نسيتها داخل السيارة، وعندما استقام في وقفته، كان يبتسم.

ـ هل أنت واثقة أنني مخطىء لقولي إن الفتيات الانكليزيات باردات في الحب، أم أنني مخطىء في انطباعي عنك؟

ـ كلاهما.. لا يجب أبداً أن تحكم على المظاهر... أو الأقاويل... مسيو. فكلا الأمرين قد يقودان إلى استنتاج خاطىء. والآن وداعاً.. وشكراً لك.

وأحنى رأسه بتحية متكبّرة، وهو يمسك باليد المرتجفة الصغيرة التي مدتها له.

ـ أوافق رأيك.. ولكن كم ستكون الحياة مملة بهذه الطريقة.

ومن يدري، ربما يوم من الأيام ستثبت «القسمة» أننا كلانا على خطأ.

مضت عدة ساعات قبل أن تلاحظ سيلينا، إن هناك شيء ناقص

في ما حدث بعد ظهر ذلك اليوم: إنه ولا في أي وقت من الأوقات، أعطى أي تلميح عن هويته.. ولم تبدو الفكرة مهمة.. فهو لم يعطي اسمه، ولم يبدو لها ضرورياً أن تعطيه اسمها، ويبدو أنه من غير المحتمل أن يتدخل القدر ليعبر في طريق هذين الغريبين ثانية..

القسمة...

كيف لسيلينا أن تعرف أن القسمة قد بدأ تحديدها؟

☆ ☆ ☆

٢ - إبرة في كومة قش!

الساعات التي سبقت العشاء تلك الأمسية بدت بطيئة. سيلينا تحممت وغيّرت ثيابها، واعتنت بمكياجها على مهل، ثم رشت القليل من ماء الكولونيا المنعش، ومع ذلك وجدت أن الساعة لم تصل بعد إلى السابعة.

وتنهدت، ثم أخرجت كومة أوراق كتابة اشترتها بعد الظهر، وجلست على حافة السرير، كي تسجل ما تبقى من اليوم الثاني لفشلها، على الورق...

مرت عشر دقائق وهي لا تزال ساهمة بالصفحات البيضاء، تفكر وليس للمرة الأولى، بقلة حظها لأن لها أختاً كانت دوماً تتبع قوانينها الخاصة، وأماً، مع حبها لها، تبدو وكأن ليس لديها أية فكرة عن صعوبات إيجاد فتاة مراوغة في بلدٍ غريب.

وتنهدت ثانية، وفكرت بحاجتها للنجاح، وهي تبحث دون جدوى عن إشارة من الأمل تستطيع التمسك بها.. ولكن كل ما استطاعت تذكره هو حمار، ورجل طويل متعجرف بدا أن له رأياً غير إيجابي

www.elromancia.com

بالفتيات الإنكليزيات... فماذا ستفعل يا ترى بذلك الحيوان؟ لا تستطيع تركه عند سي خليل، فعلى الرغم من حسن ضيافته، قد لا يريد أن يهتم بحمار... هذا إزعاج كان بإمكانها أن لا تورّط نفسها به. ولكن ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ وماذا فيما يتعلق بساعتها الثمينة؟

ودق جرس الهاتف الى جانب السرير، والتقطته مقطبة، لا بد أنهم يتصلون بغرفتها خطأ.. فلا أحد هنا يعرفها، إلا أن المتصل كان مكتب الاستقبال، ليبلغها أن مسيو بورشيل يود أن يراها.

كان ينتظرها في الصالة، وابتسامته الجذابة تشع على وجهه.

- تبدين فاتنة مدموزيل... وأنا اتساءل.. هل تمنحيني شرف تناول العشاء معي الليلة؟

- الآن...

- سامحيني على تفكيري بأنانية.. لقد كنت تأملين طبعاً أن أكون أحمل إليك اخباراً عن شقيقتك المختفية...

- أجل.. ولكنني أحب أن أتعشى معك مسيو.. كنت أشعر...

- بالوحدة في بلد غريب يجب أن أعوّض هذا لك. ولكن لنتناول اولاً بعض المقبلات.. ثم سأبلغك بأنني تذكرت شيئاً قد يساعدك، ولا أعدك، ولكن.. أرجوك حاولي أن لا تكوني خائبة الأمل.. فأنا أكره أن أكون سبباً في ظلال حول عينيك.

وأخذ ذراعها، ثم توقف.

- ربما.. تفضلين أن نتعشى في مكان آخر؟ لدي سيارتي في الخارج أم نبقى هنا؟

- هنا.. أعتقد..

ورافقها إلى طاولة في زاوية منعزلة من الصالون، وطلب شراباً..

ثم انحنى إلى الأمام ليقول:

- منذ شهر، ذكرت شقيقتك أنها ستمضي نهاية الأسبوع مع تلك المرأة الأميركية، سوزان، في ڤيللتها.. كم أتمنى لو أنني سألتها يومها أكثر، وأن أستطيع أن أعطيك الاسم الكامل لسوزان هذه.. ولكن شقيقتك كانت فتاة غامضة. ولم تكن تقبل دعواتي لمرافقتي في جولات على معالم هذا البلد.. وتقول إنها لا تؤمن بإقامة علاقات شخصية مع صاحب العمل.. وتنظر إليّ بتلك النظرة المتزمتة لفتاة انكليزية.

وكتمت سيلينا ابتسامة، فهي تعرف جيداً تصنّع شقيقتها «الغموض» وبأنها كانت تدرك جيداً مدى تأثير هذا على الرجال. لا بد أن بيتي قد وجدت شخصاً جذاباً جداً، كي تبتعد عن سحر لويس بورشيل. ولم تعلّق سيلينا، بل اطرقت وانتظرت ليكمل كلامه.

- عندما عادت من عطلتها يوم الاثنين، سألتها ما إذا كانت قد تمتعت بعطلتها.. فأعلنت أنه القي القبض عليها وهي تتعدى على أملاك الآخرين. وعندما سألتها عما تقصد، وعما إذا كان يجب أن أكفلها، ضحكت وقالت إن الأمر ليس هكذا على الإطلاق.. لقد بدت.. كيف تقولونها...؟.. معتدّة بنفسها جداً.. وقالت إنها قابلت رجلاً غامضاً ووقعت تحت سحره. ولولا سوزان لكان أسرها ووضعها سجينة في بيت مليء بالتعاويذ.

- سجينة..؟ في بيت.. وأين هي..؟ ومن هو الرجل؟

- أخشى أن لا أستطيع اخبارك، أتمنى لو أستطيع.. لقد سألتها: ما هو شكل هذا السجن الذي يحتوي على الجريم.. وقالت إنه أجمل منزل، وله حديقة كالأساطير، باشجار اللوز وقفص للعصافير المغردة، ولكن عند كل مدخل كان هناك تعويذة وضحكت قائلة إنها

www.elromancia.com

تتشوق للزيارة القادمة لڤيللا سوزان، ولم تعد تذكر الأمر ثانية. ولكنني استطعت أن ألاحظ أنها كانت مسحورة وتحيك الروايات الخيالية في ذهنها حول ذلك المنزل. ثم قالت لي بعد عدة أسابيع انها ستترك العمل، وتعرفين ما تبقى..

ولم تستطع سيلينا أن تستنتج من الأمر فبيتي ممكن أن تكون طائشة في بعض الأوقات، ولكن خيالاتها لا تدور عادة حول الحدائق الخيالية وزهر اللوز.. ولا حول البيوت الغريبة المحروسة بالطلاسم.

وقاطع لويس أفكارها، وسألها إذا كانت ترغب في الذهاب لتناول العشاء. خلال العشاء، حاولت أن لا تكون رفيقة مملة، وأن تبعد قضية بيتي من تفكيرها وان تترك الحديث يتحول إلى موضوع اجتماعي. وأحبّت أن تقص عليه ما حدث معها بعد الظهر.. ثم غيّرت رأيها..

وبلغا المقهى فقال لها لويس فجأة:

ـ ألا زلت قلقة؟ لقد زاد قلقك منذ أخبرتك عن ذلك المنزل والرجل الغامض.

ـ أجل..

ـ لقد كنت أفكر.. لا يجب أن يكون صعباً إيجاد منزل التعاويذ هذا..نحن نعرف أن الڤيللا تقع خارج الرباط،على الشاطىء، وأظن أن ذلك المنزل ليس بعيداً عنها، لو أن بيتي سارت إليه.. وأعترف بأننا كمن يفتش عن إبرة في كومة قش، ولكنني أعرف المنطقة جيداً وأظن أن الأمر يستحق أن نبذل جهداً..

ـ أنا.. أتخلى عن أي شيء لأجدها.. ولكن أظن أنني أتوقع الكثير.. أعني.. سيأخذ هذا منك الوقت.. ولديك أعمالك.. إنه لطف منك، ولكن لا أريد أن أستغل...

ـ سيكون هذا من دواعي سروري، لو أنك سمحت لي أن أشارك في البحث.. على كل، وبدرجة ما، أنا مسؤول. أوه.. أجل.. كان عليّ أن أتأكد، أين ومع من ستعمل شقيقتك.. وبدلاً عن ذلك.. لقد سمحت لغضبي أن يتملكني لأن فتاة انكليزية باردة قد أثبتت بأنها منيعة عليّ. وبهذه الطريقة يمكن أن أعوّض، لو أنك سمحت لي..

ـ حسناً، إذا كنت متأكداً.. ولكنني أستطيع أن أستأجر سيارة وأحاول بنفسي...

ـ لا.. لا يجب عليك.. فلنفترض أنك اختفيت ايضاً! يا الهي! لا.. أنا مصرّ.. ولكن المسافة طويلة. ويجب أن نبدأ رحلتنا باكراً. حتى يكون عندنا وقتٍ كافي للتفتيش.. والآن.. هل اتفقنا؟ هل نرقص...؟

كانت الأمسية جميلة، وزاد جمالها أنها كانت غير متوقعة. فلويس كان الرفيق الأكثر سحراً ورعاية الذي تتوقعه فتاة..

وجلست سيلينا ترتشف الشاي باكراً في الصباح التالي وهي في السرير. وفكرت كم أن لويس مختلف عن ذلك الأرستقراطي المتعجرف الذي قابلته بعد ظهر اليوم السابق.. ومع ذلك فملامحه المتعجرفة التي تشبه الصقر كانت تزعجها بشكل عاد إلى ذاكرتها وظهر في عينيها، وكأنما سيطرته تستطيع الوصول اليها عبر الزمن والمكان.. ولكن لماذا؟ السماء وحدها تعرف.. وهو لم يحاول بالتأكيد أن يكون لطيفاً أمامها.. لم يكن فاتناً، ولا متعاطفاً.. بل على العكس.. كان...

ودفعت سيلينا الأفكار عنها، وأخذت تفكر بيومها الحاضر، وشعرت بالراحة وهي تفكر بلويس بورشيل.. كم تصبح الحياة أسهل

www.elromancia.com

عندما يكون هناك شخص متفهم يشارك في المشاكل.

ووصل لويس بسيارة مرسيدس مكشوفة قوية وناعمة. وبناء لنصيحته وضعت على رأسها وشاحاً أبيض شفاف، ونظارات شمس رائعة.. وبعدما خرجا من المدينة علمت سبب هذه النصيحة.. فلويس يحب السرعة، وفي وقت قصير كانت الريح تضرب أطراف الوشاح وتحاول أن تخرج كل خصلة غير محمية من شعرها إلى الخارج.

واختار أن يأخذ الطريق الساحلية، واجتازا «المحمدية» بينما الطريق كانت تنساب قرب البحر وقالت سيلينا:

- يبدو البحر مغرياً.. أتعلم لم أسبح هنا بعد.

- أخشى أن تكوني غير محظوظة اليوم.. فلو أننا وضعنا أقدامنا على أحد هذه الشواطىء فلن نستطيع اكتشاف المنزل الغامض اليوم.

وعندما اقتربا من العاصمة.. بدأت سيلينا تتساءل محتارة أين سيبدأ بحثهما عن المنزل الذي لا يعرفان لا اسمه ولا أين يقع.. ومع ذلك كان لويس أكثر ثقة مما كانت تشعر، وعند تناولهما الغداء، اقترح عليها ما يراه.

- بالطريقة التي أرى الأمر بها.. ليس علينا أن نبتعد كثيراً عن المدينة.. فعندما يشتري الأميركيون ڤيللا يرغبون في أن يحصلوا على كل تسهيلات المدنية. مثل رياضتهم البحرية وتسليتهم. لذلك سنحاول التفتيش في أشهر البلاجات أولاً.. وسنسأل أهل المنطقة عن المنزل الذي وصفته شقيقتك. ولكن، يجب أن لا نأمل بالكثير.. فالديكورات الأندلسية عادة تتضمن رموزاً من الممكن أن تكون شقيقتك وصفتها على أنها تعاويذ، وأقفاص الطيور المغردة هي التي آمل أن أصل إليها.

طوال الوقت بينما الشمس تميل إلى بعد الظهيرة، حاولت سيلينا أن تحافظ على جو من الثقة، ولكن بمرور الساعات والأميال، لم تعد تستطيع تفادي القلق. الشوارع المكسوة باشجار البلح، الشواطىء التي تزيغ البصر، الڤيللات البيضاء، الڤيللات الإسبانية، والأراضي الواسعة، والحجر الملوّح بأشعة الشمس، والقرميد الزهري، السيارت، السواح، الحمير، والأجساد الملونة بالشمس، القوارب، مظلات الشاطىء.. ثم دورة أخرى على الطريق التي تمتد إلى ما لا نهاية... و..

- اوه لويس، لا بد أنك أصبحت منهكاً، أرجوك أن تعود، فأمامنا مسافة طويلة للعودة ولا بد أنك تعب.

- القيادة لا تزعجني.. وخاصة أن معي رفيقة ساحرة مثلك.

- أنت لطيف جداً، ولكن لا تقلق نفسك.. سأضطر إلى...

- لست مضطرة لفعل شيء. لا أحب أن أهزم. وهذا كان اقتراحي. ولكنني أعلم شيئاً واحداً، لن أستطيع تحمل طاولة في مقهى ولا شرب الشاي! والآن.. أتساءل..

ومد يده ثانية إلى الخريطة وفردها على ركبتيه.، واخذ يتتبع الطرقات بطرف قلم فضي، وجلست صامتة وهي تلعن بيتي الخالية من التفكير، ثم وبخت نفسها. لو أن شيئاً حدث لشقيقتها فلن تسامح نفسها أبداً لهذا الاتهام المتسرع. وتمتم لويس، ورفع حاجبيه في نظرة متسائلة نحوها. ثم طوى الخريطة وأدار المحرك وقال:

- دورة واحدة أخرى وأخيرة. ربما سيكون هذا هدفنا.. ضعي ثقتك بالقسمة.. يا صديقتي..

وقام بدورة قصيرة، ثم قاد السيارة ببطء، وهو يفتش الجوانب الريفية. وقطعت السيارة طريقاً مظللة بأشجار البلح ثم انفتحت

أمامهما وبدأت الأشجار تقل، وظهرت أمامهما بداية قرية. وظهر البحر بعد أن ارتفعت الطريق قليلاً، وشاهدا تجمعاً غير منسق من الشاليهات المتباعدة تنتشر على طول منخفض متجه نحو خليج صغير مهجور.

- إنهم يبنون مركزاً سياحياً جديداً هنا. وأعتقد أن هناك بضع ڤيللات على بعد، بنيت معزولة لتأجيرها للزوار الأثرياء.

- إنهم يفسدون كل الأماكن الجميلة الآن بهذه الشاليهات والفنادق والشقق، التي لا تنسيق فيها.. وهذا يبدو مؤسفاً..

- إنه زحف التقدم... آه.. سنسأل تلك السيدة المسنة ونصلّي لتفهم لغتي..

وابطأ سير السيارة إلى أن وقفت، أمام سيدة مسنة تسير في طريقها إلى منزلها تحمل سلة ضخمة من المآكل في ذراعها، وتجر بالأخرى طفلة يبدو عليها النعاس.

ونسيت الطفلة نعاسها، وتقدّمت لتحدّق بالسيارة وبسيلينا..

وابتسمت وهزت رأسها للسؤال الذي لم تستطع أن تفهمه، وتذكرت سيلينا أن في حقيبتها بضع حبات حلوى فأخرجتها وأعطتها للطفلة..

ولم يبدو أن لويس يلاقي نجاحاً مع المرأة. فقد وجد صعوبة في جعل المرأة تفهمه، وبدت سيلينا تشعر بأن الوقت يذهب عبثاً.. فحتى لو تعقبا الڤيللا حيث تسكن سوزان الأميركية او المنزل ذو التعاويذ، فإن هناك أمل ضئيل في أن يقود هذا إلى بيتي.. فلا بد أن المرأة الأميركية قد غادرت المكان منذ زمن. فقد مرت عدة أسابيع، ومن غير المحتمل أن تبقى هناك لفترة طويلة، إلا إذا كان لديها أصدقاء وأعمال تهمها تبقيها هناك.. أما بالنسبة للمنزل الغامض ومالكه، فقد اعترفت بيتي بأنها متسللة إليه. وما الدليل لديهما بأنها قد عادت إلى هناك؟ ثم شاهدت لويس يعود نحو السيارة وعلى وجهه تعبير الانتصار. وتنفست سيلينا الصعداء، ثم حبست أنفاسها وهو يصعد إلى السيارة.

- هل..؟

- أظن هذا.. أخيراً! لقد كانت مجموعة من الأميركيين تسكن هنا في ڤيللا جديدة.. ولكنهم غادروا منذ اسبوعين، للأسف، ومنزل التعاويذ يبعد عدة كيلومترات على هذا الطريق.

- لا أصدّق..

- ستصدقين قريباً.. مع أن مجموعة الأميركيين قد لا تكون مجموعة سوزان.

- وهل تعرف العجوز شيئاً عن مالك بيت التعاويذ.

- أحاول أن أفهم ما قالته.. فرنسيتها كانت محدودة، وعربيتي ليست مفهومة كثيراً، ولكنني استطعت أن أفهم أن المنزل ملك قاضي مدينة قادر.. القاضي الأكبر.. وهو الآن ملك القاضي الشاب لقادر، ولكنه نادراً ما يُشاهد هناك، ولقد تلقى «اللالا» الشابة من وراء البحار، ويتوقع أن يأخذها القاضي الأكبر عروساً له، لأن القاضي القديم...

- ابدأ من جديد.. وببطء.

- يبدو أن هذا المنزل هو جزء من أملاك تعود إلى عائلة فرنسية مراكشية.. ولكن لا تسأليني أي يوجد باقي هذه العائلة، ومن هو الساكن فيه، فمن الواضح أنه كان يعرف بالقاضي الكبير، في الماضي، لأن قولها القاضي الجديد يعني أن القديم قد رحل.. على كل.. هذه بداية، لذا دعينا نذهب مدموزيل.!

- هل سألتها عن قفص الطيور المغردة؟

- لقد فعلت، وهذا ما جعلها تتذكر، ثم بدأ تاريخ العائلة. وكان هناك الكثير مما قالته، لو أنني أستطعت أن أفهم عليها.

- ولكن إذا كان لا يسكن هناك أحد فمن يعتني بتلك العصافير

المسكينة و...

ـ أوه يا صديقتي.. لنقلق فقط حول شقيقتك أولاً.

ـ أجل.. أعلم، ولكن بالطبع لا يمكن لأحد أن يترك كل هذه العصافير في القفص دون طعام أو ماء. وليس في هذا الحر، ستموت.

ـ كم انت مخلوقة رقيقة القلب، هل كل هذا الحنان للعصافير فقط؟

ـ ربما بدا الأمر سخيفاً لك، ولكنني لا أتمالك نفسي من الشعور هكذا تجاه المخلوقات التي تعاني من ظلم البشر.

ونظرت أمامها إلى اشجار برية تحيط بالطريق..

ـ هل وصلنا؟

ـ ليس تماماً.. لقد كنت أفكر كم أنت مختلفة تماماً عن شقيقتك.. سامحيني لقد ابتعدت أفكاري عن مقصدنا.

وتابعت السيارة طريقها، وبعد بضع دقائق مرت تحت ظل جدار مرتفع يحاذي مباشرة طرف الطريق. وأوقف لويس السيارة خارج بوابة من القضبان المتشابكة الضيقة.

ـ أظن أن هذا هو مقصدنا. هل أتحقق منه أولاً؟

ـ لا.. سأجيء معك.. انظر!

واشارت إلى شكل منحني معلق فوق الباب.

ـ هل هذه هي التعويذة؟

وقفزت من السيارة وذهبت لتتفحصها عن قرب. وهي تظلل عينيها بيدها من الشمس الساطعة.

كانت أشبه بعظمة مستديرة أكثر من شبهها بحدوة الحصان. نصف قمر مقلوب. وقطعتين على شكل نجوم تزينان أطراف الهلال وقضيبين

معقوفين يتقاطعان. كانت متأكدة أنها لم تشاهد مثل هذه التعويذة من قبل، ومع ذلك بدت مألوفة لها.. وتطلعت إلى البوابة ثم استدارت إلى لويس:

ـ إنها مقفلة..

ـ لا بد أن هناك بوابة أخرى... تعالي سنجدها.

وتقدما أكثر، وعند زاوية الجدار، وصلا إلى مدخل أخر مهيب أكثر. كان أوسع، واسع لدرجة تسمح بمرور سيارة، وفتح المدخل عند لمسه. وعبرت إلى الداخل، بعد أن نظرت إلى التعويذة، ثم نظرت إلى الحديقة الطويلة المُعتنى بها بشكل جميل.

وهناك أشجار اللوز، والبرك يحيط بها القرميد، وزهور اللوتس تتلألأ تحت الرذاذ الخفيف المنبعث من النوافير.. ومن مكان ما ينبعث صوت العصافير تغرد... الممر يمتد تحت سلسلة من العرائش وينفتح على باحة مرصوفة أمام المنزل. فوق الأعمدة الأندلسية، شرفة طويلة بحاجز من الحديد المشغول، وتحته باب ضخم من البرونز. وعلى الباب تعويذة، ويلّف الحدائق والمنزل سكون جعل سيلينا تقترب من لويس دون أن تعي...

وحدّقت بالتعويذة، وبالحلقة الثقيلة تحتها، واستمعت إلى الصدى الذي انبعث عندما حرك لويس الحلقة على قاعدتها.

لم تكن تعتقد أن هناك من سيجيب، إلى أن استرعى صوت رقيق انتباهها لفتحة صغيرة على مستوى العين، وإلى لوحة فتحت من ورائهما. ووقع الضوء على العين التي حدّقت بهما، وتراجعت إلى الخلف وقد أجفلت. وأمسكت يد لويس بذراعها، ثم فتح الباب ببطء.

ووقف خادم ذو وجه جامد أمامهما. عيناه معتمتان ومريبتان في

www.elromancia.com

قسمات سمراء، ولم يصدر عنه أي تساؤل أو تحية، بل وقف فقط ينتظر منهما ان يتكلما..

- هل لنا ان نتكلم مع سيدك؟ نحن نطلب مساعدته.

- سيدي ليس في المنزل مسيو، ماذا تريدان من الأمير...

- لقد أتينا من مسافة بعيدة... وكنا نأمل...

- ربما أتمكن من مساعدتكما مسيو.. أنتما من السواح، ربما تجدان بعض الصعوبات؟

وأخذت سيلينا نفساً عميقاً..

- لا.. نحن نبحث عن شخص ما. شقيقتي.. أعتقد أنها أتت إلى هنا منذ مدة.. لقد قالت لنا إن...

- سيدة انكليزية شابة؟

- اوه أجل! لقد وصفت لنا هذا المنزل والأمير.. ونحن نتساءل ما إذا... أترى.. لقد فقدنا الاتصال معها ومن المهم جداً لنا أن نجدها.. ألديك فكرة أين ذهبت؟ هل ذهبت مع المرأة الأميركية سوزان...

واشتدت قبضة لويس على ذراعها ليسكتها، ثم قال:

- نحن نعلم أن الآنسة بيتي بريسلي أتت إلى هنا. ونحن واثقان أن سيدك سيتذكرها ويساعدنا على معرفة ما حدث لها.

- أنا آسف مسيو.. لا أعرف أحداً بهذا الاسم..

- وهل أنت متأكد؟ لقد أتت إلى هنا منذ بضعة أسابيع.

وبدأ الخادم يغلق الباب:

- لم يكن هنا أي سيدة انكليزية بهذا الاسم مسيو.

وقالت سيلينا:

- ولكن ربما لم تشاهدها أنت.

- لقد كنت موجوداً هنا طوال الوقت، أؤكد لك مدموزيل، لم تأت هنا أية سيدة انكليزية، أبداً.. لا بد أنك مخطئة. أنا آسف.. لا أستطيع مساعدتك، ولا سيدي يستطيع.. يوماً سعيداً مدموزيل.. مسيو...

وأغلق الباب تاركاً لويس يحدّق به، وسيلينا قد جف الدم في وجهها.

- أظن.. ربما أنني قد أخطأت، ولا يمكن أن يكون هذا هو المنزل الذي تحدثت عنه بيتي.

- أنا متأكدة أنه هو.. لديّ شعور أننا في الاتجاه الصحيح، والأكثر أنني لم أصدّق ذلك الخادم عندما قال إنه لم يرَ بيتي أبداً... هناك شيء في تعبيراته... أوه.. لست أدري...

كان قد انهيا عشاءاً متأخراً بعد رحلتهما عائدين من الرباط، وكانا يجلسان في ركن منعزل من صالون الفندق الذي تنزل فيه سيلينا.

- أنا أميل للموافقة معك.. ما عدا.. من الممكن جداً أنه لم يشاهد بيتي حتى ولو ذهبت إلى هناك ذلك اليوم.

وأدركت سيلينا أن هذا ممكن أن يكون صحيحاً ولكن شعوراً في داخلها كان يقول لها إن بيتي قد عادت إلى ذلك المنزل ذو العصافير المغردة والتعويذات الغريبة. فقالت بصوت مضطرب:

- ماذا سنفعل بعد؟ لا بد أنها في مكان ما... ولكن أين؟

- المغرب بلاد كبيرة.. لنبحث فيها كلها. أظن الآن أن عليك أن ترتاحي. يجب أن تحذري يا صديقتي، فأنت لست متعودة بعد على كل هذه الشمس.

وابتسمت قليلاً.. فهي تشعر بالإرهاق تماماً.

www.elromancia.com

ـ لا يمكن أبداً أن أشكرك بما فيه الكفاية لمساعدتك لي، لويس..

ـ هذا لا شيء.. إذا كان ممكناً، سأزورك غداً، ربما يوم جديد قد يجيء بأمل جديد.

وقف معها، وسارا نحو المصعد.

ـ عمت مساءاً.. حاولي نسيان القلق لفترة قصيرة.

ومد يده مصافحاً ثم تراجع إلى الخلف محنياً رأسه قليلاً، وانفتح باب المصعد فدخلت إليه.

وبدأت تستعد للراحة، وكانت على وشك أن تطفيء الضوء الى جانب السرير عندما بدت لها فكرة.. فهي لم تسأل عند مكتب الاستقبال ما إذا كان قد وصلتها أية رسالة من المصادر العديدة التي سألت عن شقيقتها فيها. وترددت.. لقد كان أملاً واهياً.. ولكن ما عليها سوى أن تتصل بالاستعلامات.

وجاءها صوت الموظف جافاً.. لحظة مدموزيل.. وانتظرت طويلاً.. وكانت على وشك التخلي عن المكالمة عندما عاد الصوت، واثقاً هذه المرة:

ـ أجل.. كان هناك رسالة عند هذا المساء... ألم تستلميها مدموزيل؟

ـ لا..

ـ الاسم هو بريسلي مدموزيل، رجل من قبل الآنسة بيتي بريسلي.. ترغب في رؤيتك فوراً، سترسل لك سيارة غداً عند الساعة الثامنة.. هذه هي الرسالة، أتريدين نسخة منها؟

ـ لا.. شكراً لك.

ووضعت السماعة من يدها وهي تشعر براحة كبيرة جعلتها تشعر

بالضعف.. بيتي سالمة! شكراً للسماء.. بيتي بخير..

وعند الصباح هبطت إلى غرفة الطعام، وهي تتساءل عما إذا كانت الرسالة تحتوي على دعوة، لقد طلبت بيتي أن تنضم إليها.. ولكن أين؟ وكم يبعد المكان؟ ومع من؟ وشربت بعض القهوة وتأكدت من الوقت، ثم عادت إلى غرفتها. فالفندق في مثل هذا الوقت فارغ. ولم يكن معها في غرفة الطعام سوى نزيلان كانا سيغادران ذلك الصباح. وأخذت نظارة الشمس وسترة خفيفة، ثم هبطت لتتجول في ردهة الفندق..

عند الثامنة إلا دقيقة واحدة تماماً.. دخل رجل متوسط العمر في ثياب أوروبية أنيقة إلى الردهة وتوجه إلى مكتب الاستقبال.. وانحنى الموظف إلى الأمام، ثم اشار إلى حيث سيلينا، فعاد الرجل متجهاً نحوها:

ـ آنسة سيلينا بريسلي؟ السيارة بانتظارك مدموزيل، عندما تكونين مستعدة..

ـ ولكن أليست.. أليست بيتي هنا؟ لقد اعتقدت...

وعاد اليها القلق بقوة، وتطلعت إلى وجه الرجل السمين وعيناه السوداوان لترى إذا كانت تستطيع الثقة به. ولم يبدو لها شريراً، على الأقل، بل بدا تعباً وقلقاً..

ـ ما اسمك..

ـ محمد.. سأقودك إلى حيث تنضمين الى شقيقتك مدموزيل.

ـ أجل.. ولكن.. كنت أظن أنها ستأتي لتقابلني بنفسها. هل هي بخير؟ أليست مريضة، أو أي شيء؟

ـ أرجوك لا تضطربي مدموزيل.. شقيقتك بصحة ممتازة وتتشوق للقائك.

www.elromancia.com

- ولكن الم تستطع الحضور بنفسها؟ لماذا لم تتصل بي من قبل؟

- لا أستطيع إخبارك بشيء يا مدموزيل. أنا أتصرف فقط بناء على تعليمات بأن أجيء بالسيارة إلى هنا وآخذك إلى المنزل حيث تقيم شقيقتك ضيفة على الآنسة ماريون بلير.

وترددت سيلينا، تمزقها مشاعر الريبة والحيرة. الاسم لا يعني لها شيئاً. ولكن لماذا يجب أن يعني لها؟ أوه. لو أنها فقط تستطيع أن تثق بانها لن تسير الى فخ. ولكن لماذا يجب أن يكون فخاً؟ لقد تركت بيتي وظيفتها بإرادتها، ولم تختفي هكذا فجأة. ومن قد يكون مسؤولاً عن الرسالة ووصول محمد؟ وشاهدت محمد يتراجع قليلاً، وقال:

- ألا ترغب المدموزيل بالاستجابة؟

وحياها باختصار واستدار بسرعة مبتعداً، ورأت الأبواب تتأرجح ورائه وشكله المهيب يبتعد في الخارج إلى أن يغيب عن الأنظار، واسرعت خلفه في الوقت المناسب لتراه يدخل الى سيارة ضخمة زرقاء اللون، مكشوفة. ونادته، فمال إلى جانبه ليفتح الباب لها. وابتسم.

- هل قررت الآنسة أن لا تخيب أمل أختها. هل تفضلين أن تجلسي في المقعد الخلفي.

- لا. سيكفيني الجلوس هنا.

وانطلقت السيارة بهما فوراً لحظة أغلقت الباب، أنه لا ينوي أن يختطفها، لأنه كان قد أدار المحرك واستعد للانطلاق من دونها. وبعد دقائق قال:

- هناك سجائر في الصندوق الصغير إذا رغبت الآنسة أن تدخن.

- لا. لا أريد في الوقت الحاضر. هل المكان بعيد؟

- انها طويلة كفاية يا مدموزيل. ولهذا السبب نسافر باكراً.

- قبل أن يصبح الجو حاراً.

وتذكرت أن لويس قد أعطى نفس السبب. عليها أن تعلمه بما حدث. ولكنه لن يكون في مكتبه الآن. وكانت الحركة قد بدأت تنشط في الوسط التجاري، وأحست بالتوتر في حركات محمد ليتخلص من ازدحام المدينة، وعلمت أنها لم تكن مخطئة عندما بلغا الضواحي الخارجية، واستجابت السيارة لضغط رجله على دواسة السرعة.

ونظرت إلى الطريق العام الممتد أمامها، ولاحظت حجر إشارة في الطريق يمران به بسرعة وعليه نقش يقول «P7» . اليس هذا هو الطريق إلى مدينة مراكش؟ وقالت له:

- هل نتجه إلى مدينة مراكش؟

- المدموزيل دقيقة الملاحظة. أجل، سنكون هناك قبل الغداء.

- المكان أبعد مما تصورت.

- أجل. وأخشى أن علينا الذهاب إلى أبعد من مراكش قليلاً. مدموزيل.

وأخلد الى الصمت، وحاولت سيلينا أن تخفف قلقها بمشاهدة المناظر التي تمر بها. على الأقل هي تتفرج الآن على مناظر الريف! بالأمس الرحلة مع لويس. والآن مراكش...

بعد فترة، سألها محمد إذا كانت مرتاحة وإذا كانت ترغب في التوقف لتناول القهوة. فهزت رأسها وقالت إنها تفضّل أن تصل إلى نهاية الرحلة وإلى شقيقتها بأسرع وقت ممكن. وأطرق محمد برأسه. وزادت سرعة السيارة. وقال لها:

- هناك ابريق قهوة وبعض الأكواب على المقعد وراءك مدموزيل، إذا شعرتي بالعطش.

www.elromancia.com

وتوقفا للغداء في فندق صغير على بعد خمسة عشر كيلومترا جنوبي مراكش. ومرة ثانية أحست بنفاذ صبر محمد ليعود إلى الطريق، وعلى الرغم من هذا أصرّ عليها أن تنعش نفسها وتتمشى في الحديقة حيث النوافير. ولكن شعورها بالراحة تبخر أخيراً عندما علمت إلى أين يقصدان. ففي الأفق البعيد بدت لها قمم جبال الأطلس التي تخفيها الغيوم الزرقاء.

الفزع طغى على سيلينا وأعماها عن مناظر السفوح الخضراء والوديان الواسعة الخضراء الجميلة، وتعرّج الطريق نحو مضيق من المرتفعات المهيبة كانت ساقية تلمع بالزرقة تتدفق ما بين شقوق الصخور ثم تضيع في وقت يكشف فيه انعطاف آخر للطريق عن منظر بديع أصبح وراءهما بسرعة. الظلال الحمراء الداكنة بدأت تستطيل، واستحوذ الذعر على سيلينا.. واستدارت بغضب إلى محمد:

ـ لماذا لم تقل لي إن المسافة بعيدة هكذا؟ أين نحن ذاهبان؟ أنا لا أصدق أنك ستأخذني إلى بيتي! ولكن لماذا؟ لماذا؟

ـ لأنك ما كنت ستقبلين بمرافقتي لو قلت لك إن الرحلة طويلة.. وأؤكد لك، في نهاية هذه الرحلة المتعبة ستجتمعين بشقيقتك.

ـ لا أصدقك.. اوه كيف سأعود؟ لقد سرنا مئات الأميال.. لماذا؟

ـ ستعرفين لماذا قريباً يا مدموزيل.. وحتى ذلك الوقت، أرجوك لا تضايقي نفسك، أؤكد لك، لن يصيبك أي أذى.

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ولم يردّ عليها، وركز كل اهتمامه على اجتياز الطريق بأقصى سرعة ممكنة.. وأخذت تتساءل بمرارة لماذا كانت بهذا الغباء التام. إنها في بلد غريبة، حيث لا تعرف الناس ولا تقاليدهم، ومعرفتها باللغة معدومة حتى ولو استطاعت الخلاص من محمد وطلب المساعدة من شخص آخر.

ثم، أين تستطيع الهرب الآن والليل قد بدأ يهبط؟

الشمس بدأت تتحول إلى اللون القرمزي.. تغسل الأرض من حولهما باللهب، وتلوّن الشفق الرائع باللون الوردي والذهبي. ألن يكون هناك نهاية لهذه الطريق؟ خائفة، مهزومة، تتألم بقلق بعد ساعات طويلة من القلق في السيارة، وغاصت سيلينا بسترتها اكثر.. بينما كانت النجوم تظهر في السماء المخملية الزرقاء، والسيارة مستمرة في سرعتها عبر الظلمة..

ولم تدري ما إذا كانت قد استسلمت للنوم بعد أفكارها المقلقة، ولكنها فجأة.. استيقظت وأدركت ان المحرك والحركة لم يعودا يحركان جسدها. ولمس أحدهم كتفها وجاءها صوت محمد يقول:

ـ لقد وصلنا أخيراً مدموزيل. اسمحي لي أن أمسك ذراعك حتى لا تتعثري في الظلام..

وقادها نحو باب منزل ينبعث نور ضعيف منه، وأطرافها ترتجف.. رائحة الزهور الخفيفة تصل إلى انفها، وبرزت فكرة في رأسها المتعب، تقول لها إن التعويذة لا بد أن تكون فوق رأسها وهي تدخل ردهة المدخل المضيء بنور خفيف.. الذي تؤدي إليه عدة أبواب، وتقدمت منها امرأة سمينة، بضخامة محمد، وخصلٍ رمادية في شعرها الأسود، وكانت ترتدي جلابية سوداء دون حجاب، وأشارت إلى سيلينا لتدخل الغرفة التي خرجت منها..

وتوقفت سيلينا «أين شقيقتي؟» وهزت المرأة رأسها:

ـ إنها تنتظرك مدموزيل.. ولكنني سأجلب لك بعض المرطبات أولاً.. لا بد أنك تعبة بعد رحلتك الطويلة..

وتقدمت سيلينا ببطء، نحو المدخل، ثم دخلت الغرفة المعتمة. المليئة بنور الشموع الخافت المنعكس على الحرير الأحمر والأزرق

والذهبي وفي وسط الغرفة كانت تقف فتاة صغيرة وشقراء ترتدي ثوباً يشابه ثوب سيلينا، ومدت يديها وتقدّمت وهي تبتسم:

ـ أهلاً.. شقيقتي.. أهلاً بك إلى قادر.

شقيقتي!

وجمدت سيلينا في مكانها، واسودّت الدنيا في عينيها من الصدمة، وأمسكت قشعريرة بقلبها.. لا!... وحدّقت بالوجه البيضاوي الشاحب مع بعض اللون الزهري على الخدود، والشعر الحريري الأصفر، والعينين البنيتين الجميلتين.. والابتسامة المتحدية علناً...

وامتزج الرعب بعدم التصديق...

ومدت يدها وكأنها تدفع هذه الصدمة الجديدة عنها.

ـ لا... أنت لست.. أنت لست بيتي! أنت لست..

ـ سيلينا! ألم تعرفيني؟ ألم...

ـ لا.. لم أعرفك!

وتراجعت إلى الخلف، محاولة أن تقاوم هذا الكابوس وارتفع صوتها:

ـ أنت لست بيتي.. أنا.. لم أشاهدك من قبل في حياتي!

ـ بالطبع لم تشاهديها!

أتى هذا الصوت العميق من خلفها واستدارت سيلينا مذهولة... وأخذت الغرفة تميل بها وتتلون وهي تلتقي بالنظرة المعتمة للرجل الذي تكلم... وارتفعت يدها إلى حنجرتها وحدّقت به وكأنها لا تصدق عينيها، وهمست.. «أنت... ! أنت!».

وتحرك الغريب الذي التقته في كازابلانكا مثل البرق ليمسك بها قبل أن تقع على الأرض...

٣ ـ سجن من رمال

ـ اشربي هذا.. ستكونين بخير بعد قليل..

وشاهدت الكأس الخضراء أمام عينيها، ضعفها المخيف جعلها ترفع يدها بصعوبة.. وكانت يدها ترتجف كثيراً وهي تمسك بها... وأحست ببرودتها تلمس شفتيها وصوت يقول:

ـ اشربي.. ببطء.

وأخذت رشفة من السائل البارد وهي تحاول مقاومة كل هذا الضعف الذي يزحف الى أطرافها. لم تكن قد شعرت بالإغماء من قبل، ولم تتصور أن الإغماء هو هكذا، كانت تتصوره ظلاماً كاملاً.. ثم العودة للصحو.. ولكن ليس بهذا العجز الفظيع، والقدرة على تذكر سقوطها وشخص ما يحملها مسافة طويلة. وبعض الأوامر تصدر دون أن تستوعبها..

كانت الكأس مرفوعة إلى فمها، وذراعٌ من ورائها، تضغط رأسها إلى الأمام. وقالت بضعف «هل هذا ماء..؟».

ـ طبعاً إنه ماء.. أنت لست بحاجة إلى منشّط.. أنت بحاجة للراحة!

www.elromancia.com

وابتعدت الكأس عن شفتيها وقال لها الصوت بحدة:

ـ خذي نفساً عميقاً، أعمق ما تستطيعين، ونفس آخر، وحاولي أن لا تكوني متوترة.. أنت آمنة تماماً..

آمنة! وعاودها القلق ثانية، كلامه المطمئن كان له تأثير معاكس، ورفرفت عينيها وحاولت أن تجلس، ودارت نظرتها المرتعدة في الغرفة الكبيرة التي كانت غريبة بشكل شاذ. وبدت لها أشكال لثلاثة نوافذ كالمنارات، يدخل منها ظلام بارد معطر... يلتف حولها بهدوء مخملي.. واتضح لها وجه الرجل الذي ينظر اليها، والذي ترتاح على ذراعه. وعاد الخوف يغزو عينيها وهي تحدّق بالغريب من كازابلانكا. وهمست:

ـ أين أنا؟ لماذا أتيت بي إلى هنا؟ انها ليست بيتي.. لماذا قالت إنها..؟ أوه.. أنا لا أفهم! إنه كابوس!.. لماذا؟

ـ لعدة أسباب.. عديدة جداً ولا أستطيع أن أبدأ بشرحها الآن.

ووقف الغريب واستدار نحو الباب.. وأشار إلى المرأة التي دخلت بصمت ووقفت هناك قبل أن تلاحظ سيلينا وجودها.

وتقدمت المرأة ووضعت صينية على طاولة، ثم وضعت الملابس التي كانت تحملها فوق ذراعها، عند طرف المقعد قبل أن تخرج من الغرفة بصمت كما دخلت. وقال الغريب:

ـ لقد قمت برحلة طويلة ومتعبة، ولا بد أنك تشعرين بالإرهاق، ومن المحتمل أنك ستشعرين بعدم الرغبة في الأكل، ولكن يجب أن تأكلي القليل من هذا الطعام وتشربي كل الحليب.. انه نظيف تماماً... من قطيعنا، أؤكد لك. وبعدها يجب أن ترتاحي..

ـ وكيف أستطيع أن أرتاح؟ لقد خدعتني لتأتي بي إلى هنا، وقلت إن بيتي هنا.. وطوال الوقت كان ذلك...

ـ بيتي موجودة هنا وسترينها بنفسك بعد لحظات، عندما تتماسكين وتهدأين.

ـ أهدأ! وهل تتوقع أن أهدأ وأصدق كل هذه الأكاذيب...

ـ حسناً!

ورفع يده، وتقدم نحوها ونظر إلى عينيها الثائرتين..

ـ أعلم أن هذا كله كان مزعجاً لك آنسة بريسلي، ولكن صدقيني، الصدمة التي واجهتك عندما وصلتي إلى هنا لم تكن جزءاً من خطتي، بل كانت بعيدة عنها. ولا بد أنني سأحاسب من كان مشاركاً بهذه المسرحية المزعجة.

ـ لا زلت لا أفهم... ماذا تريد مني؟ ما هي هذه الخطة؟

ـ ستعرفينها.. في وقت ملائم أكثر. أما الآن فيجب أن أصرّ عليك بأن ترتاحي.. فرحلة في السيارة لستة عشر او سبعة عشر ساعة عبر المغرب لا تترك المرء على ما يرام، أنا أعرف أنك لا تصدقيني، ولدي تصور كامل عن الأفكار التي تراودك وراء هذا الوجه الثائر، ولكن عليك الانتظار إلى الصباح من أجل الإجابات. والآن... عندما تأكلين هذا، وليس قبله، سأرسل بيتي لتراك.

ـ أنا.. أنا لست جائعة.

ـ ربما لا.. ولكن على الرغم من ذلك سأبقى هنا إلى أن تأكلي...

والتقطت على مضض كوب الزجاج المحتوي على الحليب. وتذوقته وزالت عنها بعض أفكارها الخاطئة. فقد كان حليب الماعز لذيذاً بشكل لم تتوقعه. وكانت قطعة الخبز المدهونة بالزبدة خفيفة وسهلة المذاق، وكذلك «الكايك» الصغير بطعم اللوز والعسل.

ـ أرأيت.. الأمر سهل.. هل ترغبين في المزيد؟

ـ لا . . شكراً لك.

ونظرت بعيداً، وتمنت لو أنها رفضت ان تأكل، لو أنها تستطيع . . . لو أنها ليست قلقة هكذا، وكأنها تريد أن تغلق عينيها وتقول للدنيا كلها أن تذهب الى الجحيم. لو انها تستطيع أن تجمع القوى لتتحدى وتقاوم هذا الرجل المتعجرف الذي اختطفها عملياً . . .

ـ ستتولى بيتي الاهتمام بأن تحصلي على أي شيء تريدينه لقضاء الليل، تصبحين على خير آنسة بريسلي . . وأعتقد أنك ستكونين مرتاحة هنا . . .

وغادر الغرفة، دون أن يترك لها أية فرصة للرد.

وتطلعت سيلينا إلى الباب المقفل . . . لقد حدث الكثير حتى أن تفكيرها كان مشوشاً ولم تعد تستطيع أن تفكر بالأسئلة المخيفة التي لا معنى لها. شيء واحد فقط كان واضحاً في ذهنها: إنها لن ترى بيتي. وعليها أن تواجه الواقع. بيتي ليست هنا وهناك سوء تفاهم في مكان ما . . . وخانتها أعصابها وبدأت ترتجف . . . تلك الفتاة الغريبة التي نادتها باسمها، متوقعة منها أن تعرفها، وأن تقبل بها كشقيقة لم ترها أبداً في حياتها أوه يا الله . . . هل هكذا يبدأ . . . الجنون . . . ؟

صوت فتح الباب أجفلها ولم تستطع الحراك، خائفة حتى من أن تنظر إلى الفتاة الشقراء الواقفة أمامها، تحدّق بها وتبتسم قبل أن تمد يديها بطريقة شاهدتها سيلينا آلاف المرات . . هل هذه حقيقة بيتي التي تضحك هناك أم أنه محض خيال؟

ـ إذاً لقد وصلتي إلى هنا أخيراً يا سيلينا . . يا إلهي إنها رحلة جهنمية من كازابلانكا . . . أليست كذلك؟ كيف حال الجميع وكيف حالك . . . . هل فقدتي صوتك؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا وكأنني شبح . . . ماذا . . .

ووقفت سيلينا، ولكنها اضطرت للجلوس ثانية . . . الارتياح لرؤية بيتي وسماع صوتها اعاد الضعف إلى رجليها . . . وهزت رأسها:

ـ هل هذا أنت يا بيتي؟ أنت لست . . . تلك الفتاة الأخرى . . . بيتي، بحق السماء . . . ماذا يجري؟

ـ لا شيء يا حبيبتي، ولكن يبدو أن هذا كان صدمة لك . . . ماذا دهاك لتأتي الى هنا عبر كل هذه المسافة؟ لقد صُدمت عندما علمت أنك هنا.

ـ هل صدمت؟ وماذا تظنين حصل لنا عندما فقدنا أثرك؟ وتجلسين هكذا لتقولي إنك صدمت. أظن أن عليك أن تبدأي بالتفسير يا بيتي. لماذا اختفيت دون كلمة؟ دون أن نعرف أو يكون لديك الذوق كي تتركي لنا عنواناً نستطيع الاتصال بك عبره. لقد قلقت أمك حتى المرض عليك. وإذا كنت قد عرفت أنني أتيت بحثاً عنك فلماذا لم تتصلي بي؟ بدلاً من . . . وماذا تفعلين هنا؟ ومن هو هذا الرجل الذي . . . الذي خدعني ليجيء بي إلى هنا . . . و . . . .

ـ أوه . . . أتعنين رافايل . . . إنه مثير . . . أليس كذلك؟

ـ لن أستطيع التفكير بوصف ملائم أكثر . . . إنه من أكثر الأشخاص عجرفة وقسوة ممن قابلتهم في حياتي . . .

ـ هذه هي المشكلة معك يا عزيزتي . . . أنت لا تحبين الخضوع . . أظن أنك اصطدمت معه ووجدتي أن كلمته هي النافذة. بصراحة يا سيلينا، أنت لا تتعلمين أبداً. لا يجب أن تقاومي رجلاً مثل رافايل . . .

ـ أنا لست مهتمة بمقاومته . . . أنا مهتمة فقط بالعودة إلى الوطن وأن آخذك معي. أشكر الله أنني قادرة الآن أن أرسل تلك البرقية لأمي لأخبرها بالأمر. أنت لست متورطة مع رافايل هذا . . . ألست كذلك؟ أنت لم تفعلي شيئاً مجنوناً؟

وهزت بيتي رأسها وضحكت للريبة المخيفة على وجه شقيقتها.

ـ أنت تعرفيني يا حبيبتي... الأول هو الأول في الأهمية. إنها الطريقة الوحيدة الناجحة في هذه الدنيا... ولا تبدأي في وعظي.. لقد نسيت، يجب عليّ أن أهتم بواجبات الضيافة. أرى أن مريم قد أحضرت لك ثياب نوم وروب.. أعتقد أنك حضرتي إلى هنا دون ملابس.. أنت بحاجة لمن يعتني بك!

وقطعت الغرفة نحو باب لم تلاحظه سيلينا من قبل، وفتحته، ثم أشارت إلى الداخل بيدها:

ـ ستجدين هنا مناشف وصابون وكل شيء قد تحتاجينه. وستجلب لك مريم شاي الصباح عند السابعة والنصف، والإفطار ما بين السابعة والتاسعة حسب ما تريدين.. وكل شيء متوفر، أؤكد لك. عندنا بركة سباحة، وتستطيعين ركوب الخيل إذا أردتي، أو أن تبقي في الفراش.. فالطقس حار.. حسناً... سأعود إلى فراشي الآن يا شقيقتي...

وأبعدت سيلينا نظرها عن الحمام الفاخر جداً باللون الأزرق الثلجي... وحدّقت بشقيقتها. وللحظات لم تتكلم، ثم وكأنها انفجرت بالغضب:

ـ هكذا بكل بساطة! تستطيعين العودة إلى فراشك! أوه.. لا.. ليس قبل أن تقولي لي كل شيء. أريد أن أعرف لماذا أنت هنا، ولماذا أنا هنا...

ـ لا أستطيع... لقد مرت الخمس دقائق المسموح لي بها. إنها قوانين البيت السعيد القديمة، علينا أن نطيع الأوامر.

ـ أوامر من؟

ـ ليس لك أن تسألي! هو من يعطي الأوامر يا حبيبتي، والأفضل أن نطيعها..

ـ وانت تطيعينها؟

ـ طبعاً.. فأنا أعمل هنا.. أتعلمين؟

ـ أتعنين أنك..؟

ـ أنا أعني أنني أعمل هنا، لقد أخبرتك أن عندي وظيفة جديدة. إنه أمر سهل... ما عدا... أنني أقبض راتباً جيداً، ولذا أطيع القوانين... إنه أمر سهل لم أطلب منك أن تأتي الى هنا وتتدخلي في شؤوني، لذا أخشى أن لا تستطيعي لوم سوى نفسك على ما حدث.

ـ ماذا تعنين؟ ماذا حدث؟

ـ لن نعرف الآن... ولكننا قد نعرف في الصباح. لأجل السماء توقفي عن المشاجرة.. أتدرين أن الساعة الثالثة صباحاً؟ سأراك عند الإفطار اذا كنت قد استيقظت عند ذلك الوقت.. نامي جيداً..

وخرجت بيتي قبل أن تتكلم سيلينا.. صوت اغلاق الباب كان فيه نوع من الحتمية منع سيلينا من محاولة إيقاف بيتي أو اللحاق بها كي تعطيها تفسيرات فورية، وسقطت يداها إلى جانبيها. الوقت متأخر جداً وهي تعرف من التجربة كيف أن بيتي تكون متكتمة عندما يكون مزاجها سيئاً. واستدارت ببطء نحو الحمام، القلق الأساسي قد انتهى الآن، فقد وجدت بيتي، وهي تبدو مطمئنة وعنيدة كالعادة. وماذا كانت تعني عندما قالت «لن تستطيعي لوم سوى نفسك على ما حدث؟». فماذا تتوقع أن يحدث؟ ومن هي الفتاة الأخرى؟

وتنهدت، ثم عادت إلى الغرفة، واكتشفت ما حوّل قلقها إلى خوف بارد بعث الرعدة في جسدها.

بينما كانت في الحمام، دخل شخص واغلق كل النوافذ، والباب الخارجي... ولم يكن فيه مفتاح.

www.elromancia.com

وللمرة الاولى في حياتها شعرت ماذا يعني السجن...

* * *

عانت العديد من ردات الفعل في الدقائق التي تلت ذلك الاكتشاف المرعب. ردة الفعل الفورية كانت الاندفاع لتصرخ من أجل إطلاق سراحها. من أجل حريتها، وان تجد طريقة للخلاص.

وعندما تأكدت أنها ليست مخطئة بما اكتشفت، وأن لا سبيل الى الخروج، خفت حدة الصدمة، تاركة غضباً بارداً، بعد أن أدركت قلة حيلتها، وكم أن رغبتها في الصراخ عديمة الجدوى. فإذا كان أحد يريد أن يسجنها فمن المؤكد أنه لن يرّد عليها عندما تصرخ من الغضب.

ولم تستطع ان تغفو.. بعد أن انزلقت بين الشراشف الحريرية الباردة الفاخرة، والراحة التي توفرها، بحيث أنها في أي وقت آخر غير هذا، كان يجب أن تدفعها للاسترخاء، والنوم.

وعندما بدأ شعاع الشمس.. من الافق الشرقي يجلب النور بسرعة، مضيئاً الغرفة المريبة، حدّقت سيلينا بعينيها التعبتين، غير واثقة إذا كانت قد نامت فعلاً. أم لا. وجلست، فانزلق القماش الحريري عن كتفيها العاريتين، وسمعت صوتاً يحذّرها من أن شخصاً يقف عند الباب فنادت:

ـ هل أنت..؟ من هناك؟

ورد عليها صوت على الفور.

ـ أوه.. هل استيقظتي..؟ هل أدخل؟

ـ وهل أستطيع أن أمنعك؟

ورمت عنها الغطاء. وفتح الباب، ليكشف عن ممر مستطيل عالي الجدران وزاوية فيها جرة كبيرة ذهبية وحمراء بعيدة عن نظرها.

وتقدمت الفتاة الشقراء، ونظرت إلى سيلينا وهي تحمل صينية، ثم ركلت الباب خلفها لتغلقه.

ووضعت الصينية على طاولة صغيرة وقالت:

ـ هذا هو الشاي.. لقد جئت كي أعتذر.

ونظرت سيلينا إلى وجه الفتاة التي ادّعت أنها شقيقتها في الليلة السابقة، وقالت بغضب:

ـ هل أنت من أقفل عليّ الأبواب هنا؟

واستدارت الفتاة بحدة، وتغيّر تعبير وجهها إلى الدهشة:

ـ أقفلت عليك؟ عما تتكلمين؟

وأقفلت سيلينا عينيها، لا بد أنها في منزل مجانين:

ـ ألم تفعلي هذا؟ شخص ما أقفل عليّ، وأريد أن أعرف لماذا، ومن؟

والتقطت الفتاة الإبريق الفضي الصغير وصبت الشاي في قدح.

ـ لا بد أنك كنت تتخيلين.. لم يقفل عليك أحد. لقد كان الباب مفتوحاً الآن. ولا يوجد مفتاح، وليس معي مفتاح.. هل أنت متأكدة؟

ـ متأكدة.. لقد فعل أحدهم هذا.. ولكن.. اوه.. لم يعد الأمر يهم.. لماذا قلتي بأنك بيتي ليلة أمس؟

ـ كانت مزحة.. ولم نقصد إزعاجك.. نحن..

ـ نحن؟

ـ شقيقتك و... لهذا عليّ أن أعتذر.. ولكننا لم نعتقد أنك ستُصدمين هكذا...

ـ لم تظني؟ ألم تظني أنني قد اكون قلقة حتى المرض حول بيتي.. لأنني لا أعلم أين هي! أين هي الآن؟

ـ لم تستيقظ بعد.. لقد بقيت ساهرة كثيراً ليلة أمس.. على فكرة.. يجب أن تعتادي على تبادل الأسماء. وانت هنا، وإلا

ستخربين كل شيء.

وهبط فنجان الشاي من يد سيلينا بحدة، وتلاشى الشعور بعودة الاشياء إلى طبيعتها:

ـ اسمعي! ما كل هذا؟ وماذا سأخرّب؟ وما هو هذا الغموض؟ ومن أنت؟

ـ أنا؟ أنا بيتي بريسلي! إنه أمر شرير، مرح ولكنه شرير.. أتعنين أنهم لم يقولوا لك؟

ـ لا.. ولكنني سأعرف.. لا بد أن هناك شخص ما ليس مجنونا هنا. ماذا تفعلون هنا في أوقاتكم الحرة. أتكتبون قصص أفلام الوحوش؟ تبادل الاسماء، وجري إلى هنا عبر نصف البلاد، والإقفال عليّ، ومعاملتي وكأنني.. لست أدري أية لعبة غبية تلعبانها أنت وشقيقتي، ولكنني أستطيع القول إنها ليست لعبة مرحة.

وتقدمت الفتاة نحو باب الحمام، بينما كانت سيلينا تدخله.

ـ جربي بودرة الرجال هذه.. إنها رائعة.. هل جربت...

وتجاهلتها سيلينا وهي تجفف نفسها بعد الحمام، وقد تصاعد دم الغضب إلى وجهها. وتجاوزت الفتاة، ونظرت إلى الثياب التي كانت ترتديها بالأمس والتي لم يكن لديها الخيار سوى أن ترتديها ثانية..

ومشطت شعرها بسرعة، وثبتته إلى الخلف، واستدارت:

ـ والآن أين أجده؟ ذلك الرجل المدعو رافايل؟

ـ آه.. رافايل.. لقد كنت أنوي أن أقول لك.. إنه ينتظرك.. حالما تصبحين جاهزة ستنضمين إليه لتناول الإفطار. سأدلك أين...

هكذا إذاً! وتصاعد غضب سيلينا، وشعرت فوراً برغبة بالرفض، وأن تتركه ينتظر.. وبجهد استطاعت أن تهدأ، ثم سارت نحو الباب.

وتوقفت الفتاة فجأة، وحدّقت بها للحظة، ثم ضحكت.

ـ لقد جعلك تجنين حقاً.. الم يفعل؟ لقد قال عنك إنك متهورة عنيدة، تأكلين النار.. وإنك خطيرة تماماً وإنه لن يساومك.. وإنك... ها هي مريم، الأفضل أن نذهب.. هيا بنا.

إذاً، إنها متهورة، عنيدة، تأكل النار! خطيرة! كل هذا! بعد أن... وضمّت سيلينا يديها، لم تكن هناك كلمات لتصف شعورها في تلك اللحظات.

عند أول زاوية للباحة المرصوفة، المستطيلة الشكل، توقفت الفتاة ونظرت إلى النافذة العالية ذات القضبان المفتوحة على الحديقة وأشارت بيدها «هناك» ونظرت إليها سيلينا، فلوّحت الفتاة بيدها، وتراجعت إلى الوراء «ادخلي إلى هناك فقط».

من الواضح أنها لم تكن تنوي البقاء معها أكثر مما هو ضروري، وأعادت النظر إليها وتنفست عميقاً. ورفعت رأسها، وسارت نحو الباحة عبر البوابة الزجاجية.

ـ صباح الخير!

وتوقفت مجفلة قبل أن تصطدم مع شخص طويل تحرك نحوها من طرف الغرفة التي دخلت إليها.. وقالت ببرود:

ـ صباح الخير.. قبل لي أن أدخل هنا.

ـ أوه أجل.. ألا تجلسين آنسة بريسلي؟ لم أتوقعك بهذه السرعة. هل نمت جيداً؟

ـ لم أفعل.. وأنا مندهشة لتواضعك في سؤالي.. ولكن الأمر لا يهم.. أريد أن..

ـ أجل.. سأطلب الإفطار فوراً. هل تفضلين الفواكه الطازجة أم العصير؟ أم القهوة؟ أو شراب إنكليزي مفضل لديك؟

ـ لا.. لا أريد شيئاً. أريد أن أعرف لماذا أتيت بي إلى هنا. وما

الذي يجعلك تبقيها هنا؟ ولماذا تقول تلك الفتاة الأخرى انها..

- هدئي نفسك واجلسي.. سأجيب على كل اسئلتك، بعد الإفطار...

- أريد أن أعرف الآن... أنا.

وصدر عنها إشارة غاضبة بعد أن دخل خادم يرتدي الثوب الأبيض، فاستدار الرجل ليعطيه التعليمات، ونظر الولد الأسود من خلف سيده، دون ان تبدو عليه الدهشة أو الفضول لرؤيتها هناك داخل جناح السيد الخاص. وعندما انسحب الخادم، استدار الغريب إليها، وتعبير ساخر على وجهه اغاظ سيلينا أكثر من لا مبالاته بها... وقال:

- لن نمضي سوى دقائق، وتستطيعين بعدها أن تناقشي، ومعدتك مليئة، بقوة أكثر. مع أنك مشتعلة كثيراً وأنت جائعة.

- وهل يجب ألا تكون مهيناً أيضاً؟

- انا آسف، لم أقصد هذا عمداً. ولكنك مخطئة حول عدة وقائع. وكبداية، ليس لديّ شيء ضد شقيقتك ولا أستطيع تصور كيف حصلت على مثل هذا الانطباع.. ثانياً، إنها هنا بمحض إرادتها.. وتتلقى تعويضاً كافياً لقاء خدماتها... وثالثاً كنت أتمنى لو أنني قد أوضحت لك ليلة أمس أن عملها الأحمق معك ليس جزءاً من...

وتوقف عن الكلام عندما فتح الباب ودخل الصبي يحمل صينية كبيرة... وساد الصمت في الغرفة وهو ينقل الصحون من الصينية إلى الطاولة الصغيرة المفروشة بغطاء ابيض، وأدوات خزفية صينية.. وعندما وقف كان هناك صف بديع من الصحون على الطاولة... وقال الصبي:

- ثلاث دقائق... سيدي؟

- ثلاث دقائق آنسة بريسلي؟

- ماذا؟

- البيض لإفطارك.

وأغلقت سيلينا عينيها، إن هذا جنون. هل هذا كل ما ستتلقاه كإجابة على اسئلتها، شاي أم قهوة أو بيضة مسلوقة لثلاث دقائق؟ وهزت رأسها وجلست على الكرسي الذي قدّمه لها. ثم قال:

- أخشى أنني لا أستطيع تقديم «التايمز» لك سوى القديمة ليوم او اثنين.

- أنا لا أريد التايمز.. انا أريد فقط... إن عندك الكثير من الإمكانيات، وأريد أن أعرف من انت، وأين أنا، هل سيبقى هذا لغزاً؟

ومرر لها ابريق عصير البرتقال الطويل، والوعاء الفضي المليء بمكعبات الثلج.

- ابنة عمتي وشقيقتك تحافظان على التخفي بالتأكيد.. أنا رافايل بومان.. استرخي.! أنت تجلسين وكأنك تتوقعين أن يظهر لك نمر على كتفي في أية لحظة.. لا حاجة بك للخوف..

- وماذا تتوقع مني غير ذلك؟

وأصبحت عصبية الآن، بشكل مختلف تماماً عن خوفها السابق... ووضعت الزبدة فوق قطعة «الكرواسان»، آخذة وقتاً أطول مما هي بحاجة إليه لهذه المهمة البسيطة، لتتجنب النظر إلى وجهه ولتلافي تلك النظرة التي تبعث على الاضطراب... وقالت له:

- لم تقل لي بعد ما اسم هذا المكان؟

- هذه «قادر» إنها قرية صغيرة جداً، حتى أنها غير مذكورة في دليل السياحة... وهكذا نفضّل أن تكون..

- هذا واضح... إذا حكمت بالطريقة التي...

وهز رأسه، وأحست باقتراب الخادم، ومعه بيضة بنية كبيرة موضوعة في فنجان خاص للبيض لونه أصفر، ووضعها أمامها.

وبصمت، وبعد أن شعرت بالجوع فعلاً، أنهت أكل البيضة وقطعتي كرواسان إضافيتين. وتناولت القهوة، والمربى الكثيف، وحتى العسل، الموضوع قرب نسخة من التايمز تعود إلى يومين... ورفعت نظرها لتلتقي بالعينين السوداوين المتفحصتين عند طرف الطاولة الآخر. وهزت رأسها قائلة:

- لا زلت غير فاهمة مسيو... ولكنني تمتعت بفطوري...

- تبدين بشكل أفضل الآن. يبدو أن الترويقة الإنجليزية الطراز التي نحضرها لابنة عمتي قد طمأنتك، بطريقة ما.

وقدم لها سجائر انكليزية، وعندما أشعل لها السيجارة، نهض واقفاً وقال:

- تعالي.. سأريك الحدائق.. وستتحدث.. لا ليست من هنا، بل من هنا..

وأمسك بذراعها وهو يسير بها إلى باب زجاجي آخر... كان هناك تراس آخر يحدّ المدخل الآخر للمنزل. وهو يطل على الحدائق المليئة بالأشجار المثمرة وأشجار البلح.. بعد السير قليلاً عبر التراس استدار رافايل بومان إلى ممر رملي يبتعد خارج المنزل وعندما وصلا إلى أول منعطف، قال لها فجأة:

- كيف يبدو لك الاختطاف آنسة بريسلي؟

- اذاً هكذا هو الأمر! لقد كنت محقة! أنت...! لقد أقفلت الباب عليّ ليلة أمس! لقد قالت لي إنني أتخيل، ولكنني...

- لقد أقفلنا عليك من أجل سلامتك، ولهذا السبب فقط... فلو قررتي أن تهربي خلال الليل لكنت ستتعرضين للخطر.. أليس

كذلك؟ أريدك أن تفهمي شيئاً عن الخطر الذي يهدد ابنة عمتي...

- ابنة عمتك؟ هل هي...

- ابنة عمتي ماريون، التي لعبت معك تلك المزحة الغبية... ولكن التهديد ضدها ليس مزاحاً، أؤكد لك. ولهذا هي هنا... ولهذا شقيقتك هنا، وبطريقة غير مباشرة، لهذا أنت هنا...

- ولكن لماذا قد يخطفها أي إنسان؟

- ولماذا يتم الاختطاف عادة؟ من أجل المكسب، والدافع دائماً هو نفسه... ماريون وريثة... لقد ورثت ثروة ضخمة عندما كانت في الثامنة عشر، وبسبب شروط معينة تحكم إرثها كان عليّ أن آتي بها إلى هنا كي أحميها.

- ولكن أين هو دورنا؟ لا نعرف شيئاً عن ابنة عمك ولا عن ثروتها، أو عنك. فلماذا أنا ولماذا بيتي؟

- لأن شقيقتك تشبه ماريون، وقد وافقت أن تأخذ مكانها لفترة كجزء من خطتي لأحميها...

أجزاء اللغز بدأت تتجمع اخيراً... وجال تفكير سيلينا قليلاً ثم توصلت إلى الاستنتاج الواضح والخطر...

- وهكذا إذا تم أي اختطاف فشقيقتي هي التي ستعاني!

إذا ظنوا أن بيتي هي... سوف يأخذونها.. و... ولديك الجرأة أن تطلب منها، وأن تتوقع منها أن تخاطر بحياتها في سبيل غريبة.. كيف تجرؤ؟ لم أسمع أبداً بمثل هذا...

- ابقي صوتك منخفضاً.. أعتقد أنه لن يحدث اختطاف، أو أي خطر على شقيقتك.. شرط أن تحاولي إظهار سيطرة أكبر على اعصابك، وتعقّل أكثر.

- تعقل! أظن أنني وصلت في الوقت المناسب. لم أسمع أبداً

www.elromancia.com

بمثل هذه الخطة غير الإنسانية... أنت...

- اسمعيني أولاً.. أرجوك. لقد اتخذت كل الاحتياطات لتجنب أي خطر أو خوف. وكل شيء كان على ما يرام، حتى بدأت بتحقيقاتك.. ولا يعرف أحد أين هي ماريون أو شقيقتك، ثم بدأت بإثارة المشاكل في كازابلانكا، تسألين الجميع وتقتفين أثرنا إلى منزل جدي القديم عند الشاطىء... مما اضطرني لتغيير خطتي وأن آتي بهما إلى هنا. هل تدركين كم اقتربت من تدمير كل مخططاتي؟

- أجل...! وأنا سعيدة لهذا! فليس لديك الحق بأن تفعل هذا الشيء... يجب أن تجد فتاة أخرى لتقوم لك بعملك القذر... لست أدري كيف أجبرت بيتي على القدوم إلى هنا، ولكن الامر انتهى الآن، ولله الحمد، لقد وجدتها الآن... وأنا...

- الأمر انتهى؟

- طبعاً! وهل تظن أننا سنبقى لحظة بعد؟ سنخرج من هنا حال أن توضب بيتي ثيابها.. ولا تتجرأ أن تحاول منعها.

- لحظة واحدة، أظن أن هذا أمر مستحيل...

وأدركها في خطوتين طويلتين، وحاولت أن تتخلص من قبضته على ذراعها فصرخت به غاضبة «اتركني، ليس لديك حق بإيقافنا.. أنت...».

- اسمعي أيتها الحمقاء الصغيرة... لا أريد أذيتك.. ولكنك انت تطلبين هذا. أنت هنا الآن، وعليك أن تبقي، ولا بديل عن هذا... الأمر فقط لثلاثة أسابيع، وإذا أحسنت التصرف ستكون عطلة لطيفة.. لو أنك...

- عطلة! لا بد أنك مجنون! نحن سنذهب... ولا تحاول أن تمنعنا! وإلا..

- أنا أستطيع أن أوقفك. وإذا فشلت... إذا سرتِ بضع خطوات آنسة بريسلي، ستشاهدين شيئاً لن يفشل ابداً.

وترددت للحظات، ثم سارت بضع خطوات أوصلتها إلى منحنى في الممر وإلى طرف جبل حيث تنخفض الأرض بحدة لتظهر منظراً قطع انفاسها.

عند سفح التل الطويل الممتد في الاسفل استطاعت أن ترى جداراً مرتفعاً يمتد إلى أبعد ما تستطيع رؤيته، ومن وراءه منظر لم تتوقع ابداً أن تراه، رمال ذهبية ملساء متموجة ملتهبة تحت أشعة الشمس ويمتد هذا المشهد إلى اقصى مدى تدركه العين، حتى الوميض الضبابي حيث تبدأ السماء... وقال لها بصوت هادىء من فوق كتفها:

- اجل... إنها الصحراء، فحتى لو استطعتي الخلاص مني، فلن تبتعدي كثيراً...

الفزع ومنظر تلك الصحراء التي لا نهاية لها، أبقاها صامتة، وزحفت رعدة باردة وحشية في كامل جسدها... وتابع قوله:

- وهناك شيء آخر.. هذا عالمي أنا.. هنا كل إنسان مخلص لي. مخلص لي كما كان مخلصاً لوالدي ولوالده من قبل. واينما ذهبتي، سأعرف إلى أين. ومهما قلتِ، سأسمع به، وإذا كنت غبية بما يكفي لتذهبي، فسأعيدك.

وتحرك قليلاً، واستدارت ببطء لتنظر إليه، كان ينظر إلى الرمال الحارقة، ومن حوله جو من الجاذبية الغريبة، كانت قد احست بها منذ اول لقاء لهما.. وقال ببرود:

- سأحمي ماريون بأي ثمن، ولن تعوقني آنسة انكليزية عنيدة، قد تهتم بمصير حيوان أكثر من اهتمامها بمصير إنسان.

واستدار عنها، واسكتت القوة في عينيه أي دفاع كانت لا تزال تسعى إليه.

www.elromancia.com

- إذا وعدتيني بالتعاون، أعدك أن أفعل كل ما باستطاعتي للتأكد من أن إقامتك هنا ستكون سعيدة ومريحة.. إذا لم...

وتوقف عن الكلام، وكأنما يترك لها المجال لتفهم ما يريد من خلال صمته، وببطء، وهي تشعر بأنها قد عادت إلى كابوس، نظرت ثانية إلى الصحراء وقالت بمرارة:

- لماذا لا تعترف؟ إنك ستبقيني مسجونة هنا.

- سجينة ليست كلمة لطيفة، ولكن نعم.. إذا كنا سنقولها بصراحة.. إنها الطريقة الوحيدة... ستبقين هنا كسجينة عندي...

☆ ☆ ☆

٤ - ماذا تتوقع منه؟

كانت التلال الرملية تلتمع كالنحاس، وهبّت الرياح الحارة عبر الواحات الخضراء الغنية، لترتد إلى شعر سيلينا وتوقظها من الصدمة. الرجل إلى جانبها لم يتحرك. ولم تستطع أن تصدق أنه تفوّه بهذه التهديدات المرعبة الوحشية.. وقالت بريبة:

- أعتقد أنك تعني ما تقول!

- أجل.. أعنيه... وأنا لا أضيع وقتي بالكلام الذي لا جدوى منه..

- أنت خسيس! حتى أنك لست متحضراً!

وفي اللحظة التالية كانت بين فكيّ قبضة تمسك بذراعها كفكين من حديد، وضاقت عيناه، وانتفخ صدره بالتنفس الغاضب.

- احذري. لا ترميني بالاتهامات المتسرعة، فقد تندمين عليها...

ماذا تعرفين عن طرق حياتنا وقوانيننا؟ ماذا تعرفين عنا؟ أنت من لا تسمعين وتصرخين حتى دون أن يصيبك أذى.

www.elromancia.com

وبسهولة أدارها لتصبح قريبة منه، ممسكاً بها حتى لم تعد قادرة على الحركة، ونظر إليها بعينيه الغاضبتين.

- إذاً نحن لسنا متحضرين! ولكنك لم تكوني مستعدة لهذا الاتهام عندما احتجت لمساعدتي غير المتحضرة في تعاملك مع الأوغاد في السوق. ربما، يا آنستي الإنكليزية العنيدة، من الأفضل أن أعلّمك بعض التعاليم المتحضرة التي تحتاجينها بالتأكيد.

- كيف تجرؤ! اتركني!

الحركة المقاومة جلبت لها الألم، وشهقة لم تستطع كبحها. وفجأة تركها، مصدراً حركة تنم عن عدم الاكتراث، وأخذت تدلّك أثر أصابعه حول معصمها.

- كيف تجرؤ! أنت تضيف الإهانة إلى الألم.

- ليس في نيتي أبداً ان أؤلم امرأة، ولا أن اهينها حتى عندما تغضبني. فلماذا تجبريني على أذيتك؟ لماذا لا...

- لماذا؟ لماذا... أوه!

واستدارت كالعمياء نحو أشجار البلح... لم يكن لديها أية فكرة إلى أين تهرب، ما عدا أن الممر الضيق قد يقود إلى ذلك الجدار، وأن هناك يجب ان توجد بوابة. وهي تركض شعرت بالمرارة تعود إليها في تلك اللحظة كرهت رافايل بومان كما لم تكره أي شيء في حياتها. كيف يجرؤ على أن يأتي بها إلى هنا؟ ويجرؤ على التهديد بجعلها سجينته، من الأفضل لها أن تموت بدل أن تدعه ينجح في تنفيذ تهديده.

وبدا الجدار المرتفع الأبيض وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية. وعندما لاحظت أنها في مكان بارد ظليل توقفت، وهي سعيدة لابتعادها عن الحرارة اللاهبة للشمس، وحاولت أن تهدىء من مشاعرها المضطربة. وبالتدريج لاحظت أن الجدار يلتف حول أراضي أوسع

مما كانت تعتقد، وأنه يمتد باتجاه لا زاوية له، إذاً قد لا يكون جزءاً من المنزل، وربما يكون حدود أملاك شخص آخر. وربما يكون الخلاص سهلاً..

وتحركت الى الأمام قليلاً، لتصل على الفور تقريباً إلى باب صغير في عمق حجارة الجدار، ولكنه لم يستجب لمحاولة فتحه، وغاص قلبها... فهي لا تزال ضمن سيطرة رافايل بومان..

ونظرت من خلال قضبان الباب إلى الطريق المنحدر نحو مجموعة من المباني البيضاء، ومن ورائها الصحراء، وسقط كتفيها، وسمعت وقع خطوات الى جانبها، وقال محمد:

- هل المدموزيل بخير؟ القادر يرغب في رؤيتك.

- ال... من؟

- إنه مسيو بومان مدموزيل، إنه قلق لكونك قد سرت كثيراً في الشمس... ويرغب في...

- ولكنني لا أريد العودة! هل هذه هي القرية؟

- أجل مدموزيل. ستعودين معي إلى المنزل الآن... أرجوك.

- أوه... اذهب إلى الجحيم..

كانت تقريباً بعيدة عن التعقل. وتجاهلت احتجاجات المراكشي اللطيفة، واستدارت مسرعة بالعودة، عليها أن تجد بيتي، وأن تجد طريقاً للخروج من هنا.

ووصلت إلى غرفة بيتي التي كانت قد استيقظت ولكنها لم تغادر الفراش بعد.

- يا إلهي...! ماذا كنت تفعلين؟ تبدين مثل...

- لا تهتمي بما كنت أفعل... هيا بنا.. سنغادر هذا المكان...

- نغادر...! لا بد أنك مجنونة؟

ـ لا . . ولكنني بدأت أعتقد أنك أنت المجنونة. هيا يا بيتي، لن تبقي هنا دقيقة بعد مع ذلك الشيخ اللعوب الذي لا يحتمل، لا أعرف ولا أهتم أن أعرف شيئاً عن ماريون. . فنحن سنخرج من هنا يا بيتي. ألا تتحركين؟ أتعرفين ماذا قال؟ أتعرفين ماذا. . .

ـ لا يا حبيبتي. . . ماذا قال؟

وأعادت عليها سيلينا ما حدث، وأضافت:

ـ إذا كان يعتقد أنه سينجو بفعلته هذه فإنه مخطىء. . لا بد أن هناك وسيلة نقل نستطيع استئجارها، لتوصلنا إلى أقرب هاتف. حتى ولو كان جملاً. . .

وللحظات لم تردّ بيتي عليها، ثم نهضت من السرير وجلست على حافته.

ـ تستطيعين التصرف كما تشائين يا سيلينا، ولكن استثنيني منها. فأنا سأبقى هنا.

ـ تبقين هنا؟

ـ أجل. . . أعترف أن هذا غير واقعي، ولكن لن يستمر الأمر أكثر من ثلاثة أسابيع أخرى. . . والأمر يستحق.

ـ أتعنين أنك ترفضين المغادرة؟ وليس أنك لا تستطيعين؟

ـ أنت محقة للمرة الأولى. . . أتظنين انني أفعل هذا لاجل المرح فقط؟ في خلال شهر سأحصل على ما لن أحصل عليه طوال حياتي. الفي جنيه يا حبيبتي. . فكري بها! أظن أنني سأذهب في رحلة طويلة، رحلة فخمة، وأرى اذا كنت أستطيع أن أجد لنفسي زوجاً ثرياً. مليونير، أستطيع أن أكون مخلصة له. . . الفرصة تدق بابنا لمرة واحدة فقط، ولا أنوي تفويت الفرصة هذه المرة. . .

ووقفت، مبتسمة لتعابير سيلينا الخائفة، وأضافت:

ـ لا أدري إذا كانت فرصتي ليست هنا. . بدأت أتساءل فيما إذا كان رافايل ليس هدفاً محرزاً. . انه مليء بالمال، ويملك هذا المكان ومصالحه في كازابلانكا. . ولكن المشكلة أن هذا قد يعني البقاء هنا معظم أيام السنة. ما رأيك؟

ـ رأيي ان لا نهاية لأوهامك. . ما هو بالنسبة لك؟

ـ قلت لك. . لا شيء في الوقت الحاضر. . . ولكن. . . توقفي عن المشاجرة وحاولي ان تتلاعبي عليه بسحرك بدلاً من الاندفاعات الغاضبة. . . ستفسدين كل شيء.

ـ حسناً. . من بين كل الأشياء. .

ـ اعرف. . . ولكنك وصلتي الآن إلى هنا ووجدتيني سالمة وأرضيت فضولك، فلماذا لا تشاركينا لعبتنا؟

ـ يبدو أن ليس أمامي خيار آخر.

ـ لا. . ليس أمامك خيار آخر يا حبيبتي، وخذي مني نصيحة: حاولي أن لا تكوني في الجانب الآخر ضد رافايل. . إنه السلطة هنا في هذه المنطقة. . وأنت بعيدة جداً عن الوطن.

ـ انت لا تتغيرين أبداً يا بيتي!

وضحكت بيتي ونفضت عنها الغطاء، ثم خلعت الروب وهي تتوجه نحو الحمام.

ـ وليس لديّ الرغبة في أن أتغير.

واستدارت سيلينا لتخرج، فارتفع صوت بيتي فوق صوت الدوش.

ـ ماذا بينك وبين لويس؟

ـ لا شيء بيني وبين لويس. . لقد ذهبت إليه أولاً، لأعرف أين ذهبتي. . .

ـ اوه. . ما رأيك به؟

www.elromancia.com

- لقد كان فاتناً.. وساعدني كثيراً.

- هكذا هو.. أنا أعرفه.. أرجو أن لا تكوني قد فكرتي به بجدية.

- كنت قلقة عليك ولم أفكر بجدية حول أي رجل.

- أنت غبية. لويس يحب الفتيات الإنكليزيات.. لقد تعاملت معه هكذا...

صوت فرقعة أصابعها لم يسمع وتطلب قليلاً من التخيل. وتابعت:

- للأسف أنه غني بمنظره أكثر من امواله. أتخيله قادماً لإنقاذك مثل فارس أبيض... بدافع نبيل. إلى أين وصل معك؟

- لم يحاول.

- أبداً؟ مسكينة.

- أوه.. أنت لا امل منك!

وعلمت سيلينا فعلاً أن لا أمل لها مع شقيقتها فعادت إلى غرفتها. ودخلت الحمام لتغسل وجهها.. ماذا ستفعل الآن؟ مهما قالت بيتي فلن تستطيع أن تبقى هنا، ولن تفعل. لقد أصبح لديها الآن هم أكبر بعد أن حلت المسألة الرئيسة الآن باجتماعها مع شقيقتها. عليها الآن أن تخبر أمها. ثم هناك مسألة أخرى، مسألة ثيابها، فأغراضها لا زالت في الفندق في كازابلانكا، والفاتورة ستزيد، وسوف يتساءلون أين هي، ثم هناك لويس... وخرجت تبحث عن رافايل. لا بد أنه سيصغي للمنطق.

كان هناك أصوات نسائية في مكان ما تحت الظلال في الحديقة.. وتقدمت نحو الباب الزجاجي الذي كان لا يزال مفتوحاً، الغرفة كانت فارغة، وسارت نحو الباب لتقف أمام التراس. وكان هناك صبيان في الحديقة بالجلباب الأبيض، وكانت على وشك العودة نحو المدخل الرئيسي عندما سمعت صوت محرك، ورأت السيارة البيضاء تقف

على مسافة قليلة منها.

وخرج منها رافايل، وصفق الباب وراءه ثم سار إلى داخل المنزل دون أن يلتفت.. من الواضح أنه لم يلاحظ وجودها.

ولم تتردد سيلينا لحظة، وفي ثواني كانت قرب السيارة، وفتحت الباب الخلفي بهدوء وتسللت إلى الداخل، واستلقت على السجادة الزرقاء بعيداً عن الأنظار وقلبها يخفق بشدة. لا بد أنه ذاهب إلى مكان ما، لا يهم إلى أين، طالما تستطيع أن تتسلل بعيداً، وتجد هاتفاً، وتجري بعض الترتيبات... شكراً للسماء لأنها تحمل حقيبتها...

وبعد دقيقة تقريباً، عاد رافايل من المنزل وسار نحو السيارة، ولكن بالنسبة لسيلينا بدت هذه الدقيقة وكأنها الأبد... وتصورته يفتح الباب الخلفي... ويراها... ثم يجرها بغضب....

وجلس في مقعده وصفق الباب خلفه، وأجفلت عندما أحست بالهواء البارد المنبعث من المروحة، ثم ارتاحت بعد ان بدأ الهواء البارد يدور في السيارة. وأحست بالسرعة تتزايد، وبرائحة السجاير تدغدغ أنفها.

وقاومت بشدة محاولة كبت حاجتها للعطس. وانخفضت إلى الأسفل أكثر وحاولت أن تمسك أنفاسها. ودون سبب تذكرت الفلفل وشعرت برغبة هستيرية في الضحك إضافة إلى العطس.. ثم نسيت كل شيء في صمت السيارة، فقد توقفت. ونزل منها رافايل وصفق الباب خلفه.

بعد دقيقة طويلة من الاصغاء، رفعت رأسها بحذر، ونظرت عبر زجاج النافذة... وبدرت عنها تنهيدة خيبة أمل..

فعلى مسافة من السيارة، كان رافايل يقف وظهره إلى الباب،

يتحدث إلى مراكشي شاب يرتدي قميصاً أزرق وبنطلون جينز، ومن حولهما على مد النظر غابة من أشجار البلح، الآلاف منها.

وعادت الى حيث كانت... وقد أمرضتها خيبة الأمل لا بد أن هذه مزرعة حديثة الطراز... ماذا لو أنه يزورها فقط، ثم سيعود إلى المنزل.

وبدا واضحاً أن رافايل لا ينوي أن يضيع وقته، وقال شيئاً لم تستطع أن تفهمه وهو يعود إلى الجلوس خلف المقود، وبعد لحظة عادت السيارة للتحرك.

وطالت الرحلة لعدة ساعات... أمل واحد كان لها وراء هذه الرحلة المضنية بالنسبة لها. وتاقت لأن تنظر ولكنها قاومت الإغراء. وما إن وصلت إلى استنتاج أن رافايل بومان قد يمضي في طريقه دون طعام أو ماء او راحة، خفت سرعة السيارة ثم توقفت.

وسمعت أصواتاً وكأنه يجمع اغراضاً من المقعد الأمامي، ودون أن تتوقع امتدت يده لتقفل الأبواب الخلفية من الداخل. بدا من المستحيل أن لا يكون رآها، وعندما أصبحت اخيراً لوحدها، أطلقت تنهيدة ارتياح عميقة.

وأجبرت نفسها على الانتظار، لتعطيه وقتاً للابتعاد، قبل أن تجلس فرحة لتوقع رؤيتها الشوارع والناس والبيوت من جديد. ونظرت إلى الخارج، والواقع أمامها جعلها ترغب في البكاء.

لقد كانت تنظر إلى مخيم في قلب الصحراء.

كان رجل طويل ملتحي يستقبل رافايل، ويقوده نحو الخيمة الرئيسية. بينما كان الأطفال والكلاب يدورون في الظلال تحت المدخل المفتوح للخيمة.. وأحضرت المرطبات للضيف. واستدار الشيخ، وحدّق في السماء، وقال شيئاً، وضحك رافايل، ثم دخلا تحت ظل الخيمة، وانقلب اهتمام عدة أولاد إلى السيارة.

وعبست سيلينا.. سوف يحتسي الشاي المعطر ويتبادل الأخبار... وربما الطعام، ويأخذ ما شاء من وقت. وهؤلاء الأولاد لن يذهبوا قبل أن تتلاشى فرحة لعبتهم الجديدة حول السيارة. وإذا تحركت ستكشف عن وجودها وسوف يصدرون ضجة و... ثم تأتي العاصفة! إنها الآن في سجن أسوأ من سجن المنزل الذي هربت منه. وسيكون هذا السجن غير مريح أبداً بعد وقت قصير.

لقد نسيت سيلينا تأثير الجو على سيارة تقف في الشمس، وخاصة شمس الصحراء. وبعد بضعة دقائق كانت في حالة تثير الشفقة، وتصاعدت الحرارة إلى أن اصبح داخل السيارة كالفرن.

وجفّ فمها، وبدأ رأسها يؤلمها، وأدركت أن عليها أن تحصل على شيء من الهواء، ومدت يدها إلى المقبض الذي قد يفتح النافذة، وتراقصت شرارات حمراء امام عينيها، وجعلها الضعف تترنح وهي تمسك بحافة النافذة وتجرّ نفسها إلى فوق لتتنشق هواء أقل قليلاً بحرارته من حرارة الداخل..

وسمعت أصواتاً، وشعرت بالاضطراب في الخارج، بينما كانت أصابعها تنزلق.. وقاومت لتحافظ على وعيها، وسمعت أصوات صياح الاطفال، ثم صوتا أعمق، سلطوي، وصمتت أصوات الأطفال فجأة، وفتح الباب، ووقعت إلى الأمام.

وللمرة الثانية خلال أربع وعشرين ساعة، شعرت بأنها ترتفع، وتُحمل مثل لعبة من القماش بين ذراعيّ رافايل بومان.

* * *

ـ هل تشعرين بتحسن الآن؟

ـ أجل شكراً لك.

وتجاوبت سيلينا بصوت ضعيف وهي تنظر إلى مغيب الشمس

القرمزي الذي يصبغ الصحراء باللون الأحمر.

ووجدت صعوبة في تمييز مشاعرها المرتبكة وردة فعلها تجاه رافايل بومان. عندما حملها إلى الخيمة الكبيرة وألقاها على بساط صوفي ابيض ناعم شعرت بالخجل المرير من جراء ضعفها وقنوطها مما جعل روحها المعنوية تنهار، وتجمعت نساء بعيون سوداء فوقها، جلبن لها الماء وغسلن وجهها ومعصميها بسائل بارد تفوح منه رائحة الورد. بعد ذلك فركن حنجرتها وجسدها بزيت الياسمين ووضعن مرهماً على آثار حروق الشمس على كتفيها.

الروائح كانت لا تزال تفوح بشكل خفيف، مذكرة إياها بيوم لا يزال يغشاه ضباب وهمي.. وأكبر وهم فيه كان رافايل نفسه. فقد توقعت منه الغضب والتأنيب كما حدث منه ذلك الصباح. ولكنه بقي هادئاً جداً حتى أنها تساءلت عما إذا كانت تحلم، إلى أن تركها في رعاية نساء البربر، لترتاح حتى المغيب، وأخذت تفكر بأنه قد يتركها هناك.

ولكنه عاد بعد قليل من الوقت، وسألها ما إذا كانت تشعر بتحسن يكفي لأن تبدأ رحلة العودة، ولم تصدر عنه كلمة توبيخ ولا مطالب غاضبة للتفسير.

وأظلم اللون القرمزي ليصبح ليلكياً.. ثم نيلياً غامقاً، وخفف رافايل سرعة السيارة حتى وقفت، وأدار وجهه نحوها وقال من بين شفتيه المضمومتين بشدة:

ـ لا تجرؤي بعد الآن على تكرير ما حدث...

وأغمضت عينيها، أهي حمقاء لدرجة اعتقادها أنها ستنجو منه أو من غضبه؟

ـ أنا آسفة.. ولكن ألا تستطيع أن تفهم؟ كيف أستطيع أن...

ـ أنا أفهم فقط أن فعلك الاحمق هذا كان يمكن أن يكون له نتائج مأساوية. لو أنني لم أجدك وفقدت وعيك لأصبحت مريضة جداً.

ـ كان هذا سيحل مشكلة، واحدة من مشاكلك.

ـ كيف لي أن أقنعك بأنني لا أقصد أن أؤذيك؟ وأنني أحاول أن أفعل ما أظنه الأفضل؟

ـ اجل.. أعلم أن ابنة عمتك في خطر، وأستطيع تفهم قلقك، ولكن أرجوك لا تبدأ من جديد، ألا تدرك أن أهلنا قلقون أيضاً علينا؟ لقد اختفت شقيقتي عن وجه الأرض، ثم اختفيت أنا... يجب أن أخبر والدتي أننا سالمتين... هذا إذا لم اذكر فواتير الفندق السارية المفعول.. سوف يتساءلون عما حدث لي.. وانا لا أملك شيئاً ألبسه سوى ما هو عليّ الآن. والبقاء ليومين في هذا الطقس دون أن أغير ملابسي، ليس امراً لطيفاً.

ـ ولكنني أفهم هذه الأشياء. لو أنك استمعت إليّ هذا الصباح لحللت لك كل هذه المشاكل، ووفرت عليك كل هذا الإزعاج.

وتوقف عن الكلام قليلاً وأخذ نفساً ينم عن قلة الصبر..

ـ ألن تحاولي أن تستمعي إليّ الآن، دون أن تنفجري بالغضب...

ـ حسن جداً..

وتنهدت، واستسلمت للهزيمة ولإدراكها المتزايد بسلطة هذا الخصم. ومال رأسه إلى الوراء وقال:

ـ قبل كل شيء، شقيقتك ليست معذبة الضمير كما انت على الأقل في مسألة المراسلة. وحسب علمي كتبت رسالة واحدة، وبطاقة لوالدتك. مما قد يهدىء قلقها. ولم يكن من ضمن خطتي أن أسبّب القلق لأهلك، وإذا توقفت قليلاً لتعيدي التفكير بكل ما حدث مؤخراً

لادركت أن الفزع على شقيقتك المختفية كان آخر تعقيد قد أفكر فيه، ومع ذلك، ولكي أتأكد من عدم حصول هذا ثانية، كلّفت وكيلي في كازابلانكا أن يبرق إلى أمك، ليعلن لها أنك التقيت ببيتي، وأنك ستمضين عطلة ثلاثة أسابيع تتجولين فيها بالبلاد. وستكتبين لها بعد أيام. مما يحل تلك المشكلة.

هكذا بكل بساطة! وأطلقت سيلينا تنهيدة انزعاج:

- إن أعصابك قوية...

- وهل تفضلين ان لا أعير راحة بال أمك أهتماماً

- لا.. ولكن.. لقد فعلت هذا وكأنك الأمر. وكأننا دمى بين يديك ولك الحق أن... أن تتلاعب بنا كما تشاء. وانا...

- هذا لأنني لم أستطع أن أتكهن بظروف وصولك. والآن أظن أنك فهمت.. ولكن أولاً.. قضية أغراضك الخاصة.

من الطبيعي أن أهتم بفاتورة الفندق، وأرتب أمر إحضار حقائبك لك. وحتى ذلك الوقت أنا واثق أن ابنة عمتي ستكون مسرورة بمساعدتك...

وهزت رأسها لتبدد الارتباك المتزايد... واستدارت إليه:

- لماذا؟ لماذا عليك أن تبقيني هنا؟ لا علاقة لي أبداً بشؤونك.. وبالتأكيد تستطيع السماح لي بالعودة إلى كازبلانكا ثم إلى بلادي.. إذا كنت قلقاً حول... بإمكانك أن تثق بي. لن اخبر أحداً عن كل هذا.. فكيف يمكن أن أشكل خطراً على ماريون؟ أنا لا أعرف أعداءها، فكيف أستطيع إخبارهم؟ حتى ولو أردت هذا، وهذا أمر لا يمكن أن تتصور انني أريده.

وتنهد، وأصبح التعبير على وجهه كئيباً.

- أنا لا أصدق كل هذه الأشياء، ولكن هناك أشياء كثيرة عليك أن

تعرفيها قبل أن تحكمي ما إذا كانت تصرفاتي مبالغ فيها، أو أنها مبررة تماماً... أتمانعين أن نتمشى قليلاً قبل أن نمضي في طريقنا؟

- هنا؟

وأجفلت، ثم حدّقت إلى التلال الرملية المعتمة التي لا حدود لها.

- أنا أعرف الصحراء تماماً فلا تخافي... أنت آمنة تماماً. شرط أن لا تفعلي شيئاً أحمق مثل محاولة الهرب.

- أيام هربي قد انتهت إلى أجل بعيد.

وخرجت من السيارة ووقفت أمام أنوارها الأمامية.

- ألن تطفىء الأنوار؟ من أجل البطارية..؟

- أنوار السيارة هي التي تنير لنا، ومعي دائماً واحدة إضافية.. من هنا...

ووضع يده تحت ذراعها. وكانت لا تزال حذرة منه، ولكن تجربتها بعد الظهر وإدراكها المتزايد لضعفها أمام الصحراء الغريبة كان أكثر مما يكفي لموازنة قلقها، ففي هذه اللحظات، رافايل بومان هو أهون الشرين بالنسبة لها.

- كم مقدار ما قالوه لك؟

- لا شيء.. سوى بعض الألغاز.

- لا بد أنك عرفتي أن ماريون قد أمضت معظم حياتها في انكلترا.

- لقد ظننت أنها انكليزية.

- والدها انكليزي، وعاشت في انكلترا منذ أن كانت في الثالثة من عمرها، ولكنها ولدت هنا في قادر.. جدي كان يحبها، كانت المفضلة لديه عنا جميعاً، وتكدّر بمرارة عندما لم يستطع والدها أن يستقر هنا، وهذا عائد جزئياً لأنه لم يتكيّف مع الحرارة الجافة، والجزء الآخر بسبب ضغط من عائلته، ولسوء الحظ عمتي مارلين،

www.elromancia.com

التي كانت تجيء إلى هنا مرة في السنة، وتأتي معها بماريون، قُتلت في حادث سيارة بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، وهكذا.. وقع جان تحت تأثير عائلته بالكامل. لم يكونوا موافقين ابداً على زواجه من مارلين، ولم يشاهد جدي ماريون بعد ذلك.. كان كبرياؤه يمنعه من التوسل إليهم لإرسال الطفلة كي يراها، وعنيد جداً ليسافر إلى انكلترا التي لم يحبها أبداً، مع احترامي لبلدك آنسة بريسلي.

وتوقف قليلاً، ليأخذ سيكارة، وقدم لها واحدة. وبعد أن أشعلها تابع كلامه.

ـ جدي توفي منذ ثلاثة أشهر، وترك «قادر» لي، المنزل والمزرعة. وهو يعلم أنني سأستمر في إدارتها بالطريقة التي يريدها، وترك ثروته النقدية الخاصة لماريون، ولكن عليها أن تفي بشروط محددة. أولاً، عليها أن تسكن في المغرب عندما تصبح في سن الثامنة عشر. ثانياً، لا تستطيع تحويل مالها إلى الخارج.. ثالثاً هناك شرط بأنها لو تزوجت قبل بلوغ العشرين دون موافقتي تخسر كل شيء. واخيراً إذا فشلت في تحقيق هذه الشروط، فالمال سيُقسم بين باقي أفراد العائلة. نصفه لي ونصفه لجوليان شقيق ابي الأصغر.

وتوقف ليستدير ويواجه سيلينا، واستطاعت الآن أن تفهم قلقه العميق. وتابع:

ـ ألا ترين الموقف الحرج الذي أنا فيه؟ لو حدث شيء لماريون سأكسب، ولهذا فأنا مصمم على أن لا ينجح جوليان في اهدافه. لقد كاد أن ينجح أول مرة، ولكنه لن ينجح ثانية.

وعاود الغضب لهجة رافايل بومان، نفس الغضب الذي كان موجهاً ضدها في الصباح. وقالت ببطء:

ـ جوليان هذا، إنه خالها، ومن المؤكد أنه لن يؤذي ابنة أخته؟

ـ اعتقد أنه لن يفعل، إنها قصة عائلية مملة وطويلة، ولكنه إذا استطاع أن يمنع ماريون من الوفاء بالشروط فلن يتأخر. ما عليه سوى إبعادها عن المغرب ليوم واحد ويستطيع عندها أن يطالب بما يظن أنه من حقه.. أمامه الكثير ليكسبه، ولا شيء ليخسره.

وأخيراً اقتنعت سيلينا أن مخاوفه حقيقية، وشعرت أن شكوكها حول دوافعه قد بدأت تتلاشى. فلم يكن هناك شك في إخلاصه التام. فقالت:

ـ لقد تكلمت عن قربه من النجاح.. بأية طريقة؟

ـ يوم أن سافرت ابنة عمتي من لندن. لقد جرت محاولة لخطفها من المطار، ولسوء حظ جوليان، اختطفوا فتاة اخرى، وجرى تحقيق بالأمر، وعذر واهي بأن العملية كانت مزحة. ولكننا نعلم أنها لم تكن مزحة.

وارتجفت سيلينا، إنها الحادثة التي تذكرتها والدتها ليلة سفرها لتفتش عن بيتي.. وتذكرت أنها ضحكت لكلام أمها، قائلة إن هذه الأمور لا تحدث للناس العاديين.. هل صحيح أن أي إنسان هو شخص عادي؟

ـ هل لا زلت تظنين بي الظنون الآن؟

ـ لا.. ولكن لو أنك شرحت لي الأمر منذ البداية، بدلاً من...

ـ لم يكن هناك وقت. لقد وصل جوليان مع ابنه إلى طنجة في الأسبوع الماضي. إنه يسكن في بيت صديق له في «الحسيمة» ولسوء الحظ تعرفت إحداهن على شقيقتك، وكنت أعتزم أن أسكن في المنزل الصيفي خارج كازابلانكا، والذي نادراً ما نزوره. فبعد وفاة جدتي لم يتحمل جدي السكن هناك..

ـ هل هو منزل التعاويذ الذي زارته بيتي؟ حيث...؟

www.elromancia.com

ـ حيث قررت شقيقتك أن تتجول فيه بعد ظهر أحد الأيام. بعد ذلك التقيت بها ثانية في ڤيلا سوزان.

وبدأ كل شيء ينكشف لها، وبقيت صامتة، فتابع:

ـ عندما بدأت بتحقيقاتك، قلقت. ولو بقيت لوحدك لكنت دبرت أمر زيارة بيتي لك ولكنك أشركت معك لويس بورشيل، ولا أعلم من غيره. وعندما اقتفيت أثرنا إلى المنزل في كازابلانكا كان عليّ أن أتصرف بسرعة. وقررت أن أفضل طريقة لتأكيد سلامة ماريون وشقيقتك هي أن أجيء بك إلى قادر.

وأصبح البرد في ليل الصحراء قاسياً. فارتجفت سيلينا، وأسرع يقول:

ـ أنت بردانة. سوف نعود إلى السيارة.. بإمكانك أن تشاهدي قادر في وقت لاحق. فوق ذلك المرتفع تقع قادر... إنه منظر لا أفوته أبداً، وخاصة في ضوء القمر.

ـ اوه.. ولكنني أحب أن أرى... لقد ظننت أننا نبعد عنها أميالاً.

ودون أن يتكلم، استدار. وبقي صامتاً إلى أن غادرا الطريق المعتمة وتسلقا مرتفعاً طويلاً منحنياً. الرمال كانت ناعمة ومتحركة، وملأت حذاءها. ولكنها نسيت أن تهز قدميها وتنفضهما بعد أن بلغا القمة وشاهدت المنظر عبر الصحراء المظلمة...

كان المنظر أجمل من أن يكون حقيقياً، سقوف منازل بيضاء مضاءة بنور القمر، ومئذنة جامع له قبة كاللؤلؤ، موشاة بظلال أشجار البلح، أمام سماء وكأنها المخمل الأزرق تلمع فيها النجوم الفضية... ولكنها كانت حقيقية، وكذلك السحر الذي استحوذ على سيلينا في تلك اللحظات، ليسبب لها افتناناً سوف تتذكره ما تبقى من عمرها. إنه سحر الصحراء.

ـ هل ستبقين؟.. بإرادتك؟ هل ستقبلين بضيافتي لتشاهدي المغرب الحقيقية؟

ـ أنا.. لست أدري... إن هذا جميل جداً حتى أنني لست مصدقة.

ـ إذاً يجب أن تبقي إلى أن تصدقي، ولماذا ستعودين بعد يوم أو يومين؟ يومين جلبا التعاسة لك، ويجب عليّ أن أعوض عنهما.

ولم تجب، بعد أن أصبحت مذهولة.. لقد عرفت تكبّر رافايل، سخريته، غضبه، وقسوته. والآن ها هي تجرّب سحره وقدرته على الإقناع، واستعدادها لأن تغير رأيها كان أمراً مقلقاً لها.

وفجأة، حدّق بها، نظرته كانت تريد منها أن ترفع نظرها إليه.. وقال بنعومة:

ـ ألا زلت خائفة؟

آخر خيط حريري لشرك الفتنة تمت حياكته، فقالت بصوت متقطع:

ـ لقد جعلت الأمر صعباً عليّ كي أرفض.. أجل، سأبقى.. وأنا لست خائفة.

ـ جيد.. إذاً سنعتبر الأمر قد انتهى.

وأخذ ذراعها بيده واستدار بها نحو أنوار السيارة البعيدة. هدوء رده جاء غير متوقعاً. وأسرعت سيلينا بخطواتها لتلحق بخطواته العريضة نزولاً على المنحدر.. غير متوقع لماذا؟ وماذا كانت تتوقع؟

☆ ☆ ☆

٥ ـ بحر الليل

تعب اليومين الماضيين تغلب على سيلينا هذه الليلة وغابت في سبات عميق ما إن غرق وجهها في برودة حرير الوسادة. ولم تتذكر كيف نامت عندما أحضرت مريم لها الشاي في الصباح التالي، ثم أحست أن بيتي سحبت الغطاء عنها لتجبرها على الاستيقاظ التام.

ـ هيا يا سيلينا... أنت تؤخرينا.

ـ أنا؟ وكيف؟ كم الساعة الآن؟

ـ العاشرة تقريباً.. ألن تأتي لتختاري ما تريدين؟ ثياب أيتها البلهاء. ثيابك لن تصل قبل الغد. ومن حسن الحظ أن مقاسنا واحد، وماريون تقول إنك تستطيعين أن تأخذي ما تشائين من ثيابها.

لم تكن واعية بعد تماماً لما حولها مع شعور الغموض الذي بدأ يعاودها... إنها لا زالت هنا!.. وارتدت روبها وذهبت إلى غرفة شقيقتها.

وقالت، بعد ان اختارت أقل ما يمكن أن تحتاجه في يومها من خزانة شقيقتها المليئة بسخاء.

ـ أشعر وكأنني الشحاذ في وليمة...

www.elromancia.com

وهزّت شقيقتها كتفيها وابتسمت ماريون، مظهرة وداً أكثر بكثير من اليوم السابق، وقالت:

- الأفضل لك أن تستعيري بعض الكريم الواقي من الشمس. بشرتك الشقراء ستحترق هنا إذا لم تحذري... إذا أسرعت سوف تعرفين قدرك وحظك.

- حظي؟

- إنه ضارب الرمل المحلي. لقد أرسلت مريم بطلبه هذا الصباح.. إنه ممتاز.

ولوت بيتي شفتيها بسخرية وهي تقول:

- لقد قرأ لها الرمّال ثلاث مرات منذ أن قدمت إلى هنا... وصدّقت كل كلمة قالها.

- وأنت كذلك.

- كل هذه السخافات عن الصحراء تدعوك اليها!

على الرغم من المزاح المزعج، كان واضحاً أن نوعاً خاصاً من الصداقة يربط بين الفتاتين، وضحكت ماريون وقالت:

- على كل، هو أفضل من تنبؤات المنجمين التي تنشرها المجلات في إنكلترا، إضافة إلى أن هذا شيء نستطيع أن نمضي الوقت به. سنجلس قرب البركة، وأراهن بأنه سيدهشك.

هل سيدهشها؟ سيلينا كانت تشك. جلسة مع قارىء الحظ هي آخر ما قد يعجبها في مزاجها الحالي. وذهبت لتستحم وترتدي ثيابها، ثم تناولت إفطاراً خفيفاً لوحدها بحضور الصبي الصامت الذي خدمها في الصباح السابق.

لم يكن هناك أي أثر لرفايل بومان، ولا أي دليل على وجوده عندما بدأت تبحث عن الفتاتين. ووجدتهما قرب البركة. التي على الرغم

من صغرها تبعث شعوراً بالبرودة وهي مظللة تماماً بأغصان النخيل الكثيفة. وعلى تراس صغير مرتفع عند أحد أطراف البركة، جلس وأمامه قطعة قماش رقيقة وجلست الفتاتان أمامه وهو منحنٍ فوق ضفة رقيقة من الرمال.. وكانت ماريون تقول:

- لا بد أنه يعني رالف، إنه الرجل الوحيد الذي أعرفه يستطيع أن ينتزع الموسيقى من الهواء، إنه يعزف الغيثار، ولكن ليس بشكل جيد.

- اساليه ما إذا كان هذا في الماضي أم الحاضر أم المستقبل.

ومسح سطح الرمل بحركة غاضبة ومدّ يده إلى قطعة القماش قائلاً:

- الرمال لن تتكلم مع من لا يؤمن.

وطوى القماش.. من الواضح أن ساعة التنبؤ قد انتهت. وقالت ماريون:

- لقد قلت لك بأن لا تضحكي... وأنت تعرفين هذا...

واستدارت لترى أمامها سيلينا:

- تعالي... لقد وصلتي في الوقت المناسب لتعرفي قدرك.

وتراجعت سيلينا خطوة إلى الوراء.

- لا، شكراً. أفضّل أن أبقى جاهلة...

وتلاشى صوتها عندما رفع ضارب الرمل نظره إلى وجهها، ومد يده الرفيعة، ولكن الإشارة هذه لم يكن فيها إلحاح المحترفين الذي كانت تراه عند متصيدي السواح. كان فيها شيء من السلطة، والكبرياء. عيناه الحارقتان فيهما حدة بعثت رعدة فيها... وقال:

- قدر «اللالا» مكتوب، حتى ولو أنها تنكره. وستنكره رغم صدق الرمال.

www.elromancia.com

وتلاشت البسمات عن وجهي الفتاتين. وحدقتا بسيلينا وهي تتقدم ببطء رغم إرادتها ناظرة إلى حفنة الرمال التي فردها ضارب الرمل على القماش. وتابع بنفس اللهجة العميقة:

- لقد اتيتي من البعيد، عبر ظلمات النهار وغيوم الليل. هناك الكثير من الظلام أمام «اللالا». ولكنها لا تأتي من الصحراء التي تخافها، ولا من المصير الذي تنكره.. لا تستمعي للأصوات التي تثقين بها، ولا تثقي سوى بأصواتك الخاصة. لأن الصحراء تحجب يد «القسمة» التي تمسك بمفتاح الحرية التي تسعين اليها.

وبعناية متعمدة، خطط فوق الرمال الناعمة، ولاحق الرسم الغريب بقضيب صغير مدبب. وانحنى فوقه، وحبست سيلينا أنفاسها:

- أنا.. أنا لا أفهم... من عليّ أن لا أثق به وما هو ما يجب أن لا أصدق؟

- لا يُمنح البشر دائماً نعمة الفهم...

ونظر إليها، وبدت على ملامحه الجدية المطلقة، وربت على الرمال:

- هناك التعاويذ... خذيها ولا تخافي الظلام. التعاويذ هي المفتاح.

- أية تعاويذ؟ ماذا تعني؟

- يجب أن تبقى مخبأة. لا شيء يستطيع تغيير مسار القدر. لا تنظري خلفك إلى بحر الليل... وسيري فوق رمال الصباح. الله معك. فأنت لن تسيري لوحدك.

وأطبق الصمت على الفتيات، بينما كان ضارب الرمل يجمع أغراضه ويلف صرة الرمل الصغيرة ويضعها تحت ثوبه الأبيض، ولمس جبينه بارتباك «السلام عليكم» وبعد لحظة كان قد اختفى..

كان هناك وقار غريب فيه، ونوع من الإقناع استحوذ على سيلينا، على الرغم من محاولتها التخلص من سحره. وضحكت بيتي وقالت:

- ما هذا الذي قاله؟ لم يقل لنا مثل هذا الشيء.

وهزت سيلينا رأسها.. وقطبّت ماريون جبينها قائلة:

- لقد أصابني بالرجفة... وأنا سعيدة أنه لم يقل لي هذا. أتساءل ماذا يعني بالتعاويذ والمفتاح. هل فهمت ماذا كان يقصد؟

كانت سيلينا لا تزال صامتة، محتارة. وقالت أخيراً:

- لا أظن أنه يعني التعويذة أو المفتاح، إنها رموز لنبؤته، ولكن ممكن أن تعني أي شيء... السماء وحدها تعرف!

وقالت ماريون وهي مقطبة:

- كانت نوعاً من التحذير.. لقد أحسست بها. أنا واثقة أنه كان يحاول أن يقول لك شيئاً. أعرف هذا! سنسأل ابن خالي. وهو سيعرف. إنه يفهم رموزهم.. إنه...

وقالت سيلينا بحدة:

- ليس رافايل.. لا، أرجوك لا تسأليه.. لأجل السماء.. إنه...

- وماذا لا يجب أن تسألني عنه؟

كان قد أقبل نحوهن دون أن تلاحظنه. كان في كلامه مع ابنة عمته الشابة نوع من التدليل، ولكن تساؤله البارد كان في نظرته إلى وجه سيلينا الأحمر.

وتجاهلت ماريون نظرة سيلينا المتوسلة، واستمرت في إعادة ما قاله ضارب الرمل... واستمع إليها بصمت، ثم قال:

- وهل تأخذين الأمر بشكل جدي؟

- لا.. بالطبع لا..

وأدارت سيلينا وجهها وهي تشعر بعدم الارتياح، ثم خلعت سترتها

www.elromancia.com

الخفيفة وهو يقول:

- من الحكمة أن لا تعيري مثل هذه الخرافات التفاتاً. على كل الأحوال ما الخطر هنا الذي قد يثير مخاوفك؟

- لا شيء... مسيو.

وقالت بيتي فجأة:

- ولكن شيئاً ما سبّب لك هذه الخدوش.. انظري إلى ذراعيك!

وشعرت سيلينا، بعد الصمت الذي سببته ملاحظة بيتي هذه، وكأن العلامات على ذراعيها تحرقها.

- أنا.. لقد صدمت نفسي... بشيء ما.

وأعادت ارتداء سترتها بغضب لتخفي الآثار التي خلفها عنف رافايل عليها في اليوم السابق، واستدارت مبتعدة، راكضة تقريباً نحو المنزل:

- هاي..! ألن تسبحي؟

وتجاهلت نداء بيتي قائلة «فيما بعد» وعادت إلى غرفتها. وعندما هدأت قليلاً جلست على حافة السرير، وحدقت بالبراعم البراقة التي تبدو على الأشجار خارج النافذة. رائحة الورد وزهر الليمون كانت تعبق في الغرفة، ولكنها لم تشعرها بالسعادة.

كيف ستتحمل ثلاثة أسابيع أخرى هنا؟

وحاولت أن تسيطر على غضبها، بينما التعقل كان يقول لها إنها ستؤذي نفسها لو حاولت المواجهة. وسارت نحو النافذة لتنظر من خلال القضبان إلى الحديقة الهادئة. من الممكن أن تكون هذه الأسابيع عطلة العمر. لأن المنزل الذي يقع عند أطراف الصحراء لا ينقصه شيء من الراحة، وموقعه يثير جواً يخيم فوق أية احاسيس بالمقاومة. اجل... هناك نوع من السحر في قادر.

وغيرت ملابسها ثم خرجت إلى الحديقة، لتجد مكاناً ظليلاً تجلس فيه وتقرأ حتى وقت الغداء. خلال تناول الغداء بقيت صامتة بأدب، بينما رافايل كان يلعب دور المضيف الممتاز، ويعامل بيتي وابنة عمته وكأنهما ضيفتان عزيزتان غاليتان. وتمنت سيلينا لو تنتهي فترة تناول المرطبات بعد الغداء بسرعة لتهرب من التوتر الذي يصيبها عادة في وجود رافايل. وفكرت بضارب الرمل. المخاوف التي أثارها أصبحت الآن مضجرة! فسيلينا بطبيعتها شخص نشط. والتكاسل لا يروق لها أبداً، ولكن يبدو أن هذا سيكون قدرها لفترة طويلة، إذا نجح رافايل في تطبيق خطته، وهناك حدود للوقت الذي تستطيع أن تمضيه في القراءة. وكانت على وشك أن تعتذر لتغادر عندما نظرت بيتي إلى رافايل وقالت:

- يبدو أن شقيقتي قد أصبحت ضجرة... ماذا ستفعل حول هذا الأمر؟

- وهل أنت ضجرة آنسة بريسلي؟ يجب أن نعوض لك عن هذا. ماذا تحبين أن تفعلي؟

شعرت وكأنه يسخر منها. فقالت بمرارة:

- وهل يهم ماذا أريد؟

- طبعاً.. شرط أن يكون ضمن المعقول.

- المعقول بالنسبة لك.

وساد صمت بارد، ثم قالت ماريون:

- نستطيع الذهاب إلى السوق. إنه يوم الخميس.. أرأيتم أنا أتعلم أسماء الأيام بالعربية بسرعة.

وقال رافايل «الطقس حار والسوق مغبر».

- وإن يكن؟ أنا أحب السوق. أوه أرجوك يا رافايل...

ووقفت لتقترب منه وتضع ذراعها حول كتفيه وتنظر الى وجهه برجاء.. فقالت بيتي:

- ولكن رافايل لا يحب السوق، وتنشق تلك الروائح، وتلك الشخصيات مع الأفاعي المروعة. أنا واثقة أنه سيفكر بشيء أكثر تسلية. ما رأيك؟

وعندما لم يرد على الفور، تابعت كلامها:

- نستطيع الذهاب إلى ذلك المكان فوق التلال. إنها نزهة رائعة...

وأفلت رافايل نفسه بلطف من ذراع ماريون منحنياً لينفض سيجارته.

- لا أظن سيلينا ميالة للخروج معي في نزهة. سيأخذكن محمد إلى السوق... والرحلة الأخرى فيما بعد.

ووقفت سيلينا بسرعة وقالت:

- بإمكانكن أن تعفوني من الخروج معكن. لا أشعر بميل الى الخروج الآن.

وتقدمت منها ماريون، تتفرس بها ببعض القلق:

- ألا زلتي غاضبة من رافايل لأنه أتى بك إلى هنا؟ أنا آسفة... إنها غلطتي... أتمنى لو أنه لم يفعل... سيلينا.. هل أستطيع التحدث معك؟

- طبعاً. إنها ليست غلطتك... وأنا لا ألوم...

- لا. ليس الأمر هكذا.. أنا بحاجة لأن أتكلم مع شخص ما، وأنا... ليس من السهل شرح الأمر. لقد بدا هذا وكأنه أمر مرح في البداية. القدوم إلى هنا والوصية، لم نتصور أبداً أن جدي سيترك الأمر كله بين يديّ، مع كل هذه الشروط الغريبة... لقد اخبرك

رافايل، ألم يفعل؟

وهزت سيلينا رأسها، فتابعت ماريون بنفس الصوت الناعم القلق، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد.

- جدي... الإنكليزي.. كان غاضباً. لم يرد أن أجيء إلى هنا أبداً، ولكنني أقنعته، وبعد أن بحث الأمر مع محاميه وقام ببعض التحقيقات. وجد أن من الصعوبة أن نخالف الوصية، إلا إذا وفيت بالشروط، وانتظرت إلى أن أبلغ العشرين. وافترض أن لا أحد يستطيع منعي بعد ذلك من أن أفعل ما أشاء، أو أعيش أين أشاء... وصدقيني، ذلك المنزل القديم في انكلترا يحتاج إلى إصلاح... هل رأيتي مرة منزلاً فخماً وبالياً؟ في الشتاء نضع كل الأثاث الثمين في غرفة الجلوس لأنها الأقل رطوبة، ونتجمد نحن من البرد في غرفة ملاصقة للمطبخ إلى أن يأتي الربيع، وفي السنة الماضية دهنا واجهة المنزل، أما خلفيته فلا يراها أحد.

وتمتمت سيلينا متعاطفة معها، دون أن تدري أين سيقود هذا الحديث:

- هذه المنازل القديمة تجلب الكثير من المشاكل.

- ومع ذلك فليس هذا هو المهم. رغم خطورة الأمر. في البداية كان الأمر كالمزاح، أن تأتي بيتي إلى هنا ونتظاهر بأن إحدانا هي الأخرى. ولكن عندما أتى بك رافايل إلى هنا وأجبرك على البقاء، بدأت افكر بكل جوانب المسألة الأخرى. إنه مصمم على أن يتم كل شيء حسب رغبة جدي. وأن يجعلني أقيم هنا بصورة دائمة. ثم... أنا لست واثقة أنني أحب أن تسير الأمور هكذا.

- أجل.. الأمر صعب عندما يكون للمرء بلدان كلاهما وطنه.

- لا.. لا زلت غير فاهمة. إنه رافايل. أترين، جدي كان يراسلني

بانتظام طوال وجودي في انكلترا. كان يمازحني بأنني سأعود إلى وطني الأصلي عندما أكبر، وعندها سأبقى هنا إلى الأبد، لأن رافايل سيتزوجني.

- اوه.. وهل ستتزوجينه؟

- لا.. على الأقل لا أفكر هكذا. لم آخذ الأمر بشكل جدي. لم أكن قد رأيته منذ آخر مرة زار فيها انكلترا وكنت في الرابعة عشر من عمري. وبالكاد أعرفه. ولم أكن أرغب في الزواج منه... فأنا تقريباً مخطوبة لرالف هيلتون.. وأنا واثقة أنه لا يريد الزواج مني.. ولكن هناك شيء حول رافايل.. أتعرفين ماذا أعني؟ عندما اكون معه أنسى كل شيء عن رالف، وأشعر بأنني مفتونة، بمجرد أن أرى كيف يتصرف رافايل.

- وهل يتصرف رافايل معك؟

- لا.. ليس بالطريقة التي يتصرف بها رالف، إنه يبتسم لي فقط ويجعلني أشعر أنني ابنة عمته الصغيرة.

- ستنسين كل شيء عندما ينتهي هذا. إنك تشعرين هكذا لأنك معه طوال الوقت، وبعيدة عن أي إنسان آخر.

- أعتقد هذا. أتمنى لو أعرف ماذا سيحدث. أحياناً أتشوق للعودة إلى وطني ثانية، ثم أتذكر أن هنا وطني ايضاً، وأحس بالتمزق. أعني، أنني لا أستطيع البقاء هنا... أليس كذلك؟

- إذا تزوجت رافايل ستضطرين للبقاء هنا.

- ولكن إذا لم أفعل... أتمنى أن أعرف ماذا سيفعل... أترين، لا أستطيع الزواج دون موافقته.. إلا إذا تخليت عن كل شيء وعدت إلى انكلترا. وقد لا يسمح لي بالزواج من رالف.

- ستحل كل المشاكل، لا تقلقي، لا يستطيع أحد أن يجبرك على

الزواج من أي شخص لا تريدين الزواج منه، أو أن تعيشي حيث لا تريدين أن تعيشي.

- لا... لا زلت لا تفهميني، مثل شقيقتك، من السهل أن تكوني واثقة عندما تكوني متفرجة.

- أنا آسفة، لا افهمك. ولكنني واثقة أن رافايل لن يحاول منعك من الزواج بذلك الشاب إذا كنت تحبينه حقاً.

- ولكن هذا هو الموضوع. لم أعد واثقة. هذا ما أحاول أن أقوله لك. ولكنك مثل بيتي. هي لا تؤمن بالحب. تقول إن باستطاعتك أن تحبي أي رجل شرط أن يكون جذاباً بما فيه الكفاية، ويشعل فيك الشرارة المناسبة. تقول إن الجاذب هو الذي يجعلك تحبين الرجل، ثم تتعودان على بعضكما، وينجح الأمر، ولهذا أنا...

- أنت لست بحاجة لأن تستمعي لأقوال بيتي. إنها دائماً هكذا. يوم من الأيام ستقع في حب صادم وتستقر. ولكن بحق السماء لا تتأثري بآرائها. كل ما تريده بيتي الآن أن تتمتع، ولكنها لا تعني نصف ما تقوله.

- ربما لا.. ولكنها محقة حول الجاذبية. وهذا يخيفني. أترين، إنها منيعة تجاه رافايل، وكذلك أنت. ولكنني لست كذلك.

وسمعتا وقع خطوات سريعة في الخارج، واستدارت ماريون عندما سمعت بيتي تقول:

- اوه.. ها أنتما! لا تهربي قبل أن نعود.. ستضيعي!

- لن أفعل!

واستدارت سيلينا ولم تتحرك من مكانها إلى أن ساد الصمت ثانية. ثم سارت ببطء في الغرفة.

وحاولت صرف الأفكار عنها، وذهبت لتفتش عن مريم لتطلب منها

www.elromancia.com

ورق كتابة. وبعد أن حصلت على ما تريد، جلست لتكتب رسالة مطولة لوالدتها. ووجدت صعوبة في الكتابة أكثر مما تصورت، وهي تحاول عدم قول كل الحقيقة في الرسالة. إنها الآن ملتزمة بنوع خاص من التصرف، لو أن أمها شكت بأقل شيء، سيكون الأمر مزعجاً. وأعادت قراءة الرسالة، وقررت أنها مقنعة وترضي الفضول دون الكشف عن شيء. ثم وضعتها في مغلف، ولم تقفله.. فقد ترغب بيتي بإضافة شيء على الرسالة.

في تلك اللحظة قدمت مريم لتسألها إذا كانت تريد شرب الشاي.

ولم يكن الآخرون قد عادوا بعد، لا شك أنهم سيتأخرون. وأخذت صينية الشاي إلى المخبأ الذي اكتشفته في الحديقة، وعندما استسلمت لإغراء الفطائر بالعسل واللوز.. استرخت قليلاً، وهي تستمع إلى أزيز النحل العميق الخفيف، ووجدت نفسها تفكر بلويس بورشيل. كان عليها أن تخبره بأنها وجدت بيتي وأن كل شيء على ما يرام، تقريباً على ما يرام! قد يكون يتساءل ماذا حصل لها، وربما يقوم بالتحقيقات. لقد كان لطيفاً معها، وحاول مساعدتها عندما لم يكن هناك إنسان واحد تلجأ إليه... نعم.. عليها أن تخبره.

كانت الشمس تميل إلى المغيب، وظلال الاشجار تتطاول، مخبرة إياها بأن الليل قد أصبح قريباً، عندما وضعت الرسالة في المغلف وفتشت عن مفكرتها الصغيرة لتجد عنوان مكتب لويس. ثم سمعت صوت وقع أقدام وأطل رافايل ينظر إليها.

ـ إذاً ها هنا تختبئين، هل كنت لوحدك هنا، منذ الغداء.

ـ اجل.. ولكنني لست مختبئة.

وأقفلت المغلف ومدت يدها لتضعه في حقيبتها إلى جانب رسالة أمها، ولكن قبل أن تفعل قال لها بحدة:

ـ هل ما أراه صحيح؟ هذه الرسالة.. أهي موجهة إلى لويس بورشيل.

ـ وماذا إذا كانت؟ ولماذا لا أكتب له؟

ـ لا سبب يمنع أبداً، في ظروف عادية. ولكننا لسنا في ظروف عادية. ولا أنوي تشجيع أي زائر، وخاصة فرنسي شاب مهووس بالحب. ما هي طبيعة هذه الرسالة التي سترسلينها إليه.

ـ وإذا لم أقل لك؟

ـ لن تتركي لي الخيار سوى اللجوء إلى وسائل اخرى.

ـ مثل التي لجأت إليها في صباح الأمس. وسائل تعلم أنني لا أستطيع مقاومتها. كيف يمكن للرجل أن يصبح خسيساً إلى هذا الحد؟ أنت بربري! باستعمالك العنف...

وتحولت كلماتها الى شهقة وهو يمسك بذراعها ويديرها لتواجهه.

ـ ألا يمكن لك أن تكوني متعقلة؟ هل يجب عليك دائماً أن تستفزيني؟ يمكن وصفي بالعديد من الأشياء، ولكن لم يدعني احد من قبل بالخسيس دون أن يندم.

ـ انت خسيس! اتركني!

ومدت يدها الأخرى إلى الرسالتين وصرخت بقوة:

ـ خذ! خذهما. اقرأهما. هيا!

ومدت يدها إليه، وهي ممسكة بهما، ووجهها مليء بالاحتقار.

ـ ربما عندها ستصدقني بأنهما لا تحتويان شيئاً يعرّض خطتك أو ابنة عمتك الوريثة للخطر، أو أي شيء! وعندها ستعلم لماذا أدعوك بالخسيس. حسناً.. لقد حصلت على ما تريد، لماذا لا تقرأهما؟

وحدّق بها، وزمّ شفتيه وهي تجلس على المقعد الخشبي وتدير رأسها عنه. وأحست بضعف خطير في أطرافها. وسمعت صوت

حفيف ورق الكتابة، وأحست برضى مرير، فالظلام قد منعه من رؤية الكتابة، ثم وضع الرسالتين على ركبتيها، ورسالة لويس لم تكن مفتوحة. وقال بسرعة:

- أعتذر.. لقد أسأت الحكم عليك. ولكن لماذا تعاديني هكذا؟

- لماذا؟ هذا سؤال سخيف...

- أنا لست معتاداً على مثل هذه العدوانية من امرأة. فهل من العجيب أن تثير رداً مماثلاً؟

- لا.. إذا كنت تعامل النساء هكذا. فالعنف يستتبع العنف.

- كما الألم يستتبع الألم. أظن أنني افهم. اتذكر الآن، لقد قلت إنك صدمت نفسك بشيء هذا الصباح.

ورفع كمّي القميص عن معصمها ولمس العلامات الداكنة على جلدها الرقيق.

- هل أنا من فعلت هذا؟

- أجل...

- ولكن هذا ليس سبب ألمك، كما أظن. أنت غاضبة لأنك لا تستطيعين الرد بقوة مماثلة كي تشبعي غضبك.

- وهل تتوقع أن أخضع بوداعة؟

ونظر إليها بحدة، وقبضته دافئة وثابتة حول معصمها، ثم هز رأسه:

- لا.. لا أظن.. فالخضوع في المرأة قد يكون مضجراً كثيراً..

- لأنه لا يروق لغريزتك المستبدة؟

- لا.. بل لأن المرأة الخاضعة ينقصها روح التحدي. وهكذا تكون لا تثير الاهتمام.

الرد اللاذع هذا ومض كالبرق، ثم عاد إلى الابتسام، أسنانه البيضاء تلمع داخل فمه. ولاحظت أن العتمة قد هبطت دون أن

تلاحظها. وفجأة شعرت بالعزلة من حولهما وبنوع من الألفة معه. فقالت:

- لا تستطيع الحصول على امرأة تملك الأمرين معاً... أعتقد أنك تفضّل ان ترهب المرأة لتصل إلى الخضوع لإرادتك..

- سيلينا.. ما هذه الأفكار السيئة عني...

إنها المرة الأولى التي يستخدم فيها اسمها الأول. ونغمتها ترددت وكأنها قبلة. وسرت رعدة في أوصالها. الطريقة التي لفظ بها اسمها اخترقت كل الحواجز التي تحافظ عليها ضده. وأضاف بنعومة:

- إذا كنت أرغب في خضوع امرأة، لن يكون عليّ أن أرهبها، صدقيني، هناك طرق أخرى مرضية اكثر.

وأخذت أجراس الإنذار تضج في رأس سيلينا، ولكن متأخرة في إرسال تحذيرها بالهرب. روح رافايل بومان كانت قوة ملموسة تتسلل إليها، يزيدها بشكل غير محتمل الدفء والهدوء لتلك الليلة. فقد استطاعت أن تتصور تلك الطرق الأخرى المرضية... إذا كانت الفتاة من الغباء بحيث تقع في تلك الحبائل... وحاولت أن تبقي صوتها هادئاً وهي تقول:

- بالنسبة لك.. ليس هناك أي شك. والآن، الوقت متأخر، وأنا...

- متأخر؟ وماذا يهم الوقت؟

ووضع يده تحت ذراعها قائلاً:

- تعالي.. سأريك حديقتنا الإنكليزية الطراز.

- اوه... ولكنني شاهدت كل الحدائق. إنها كلها جميلة، ولكن، الوقت مظلم الآن.

- إنه أفضل وقت من اليوم... وأنت لم تشاهدي بعد هذا الجزء

www.elromancia.com

الخاص من الحدائق... ما بك؟ هل أنت خائفة؟

- بالطبع لا!

وقطعا ممراً صغيراً لم تكن تعرف بوجوده، وخرجا نحو باحة خارجية.. والى اليمين قليلاً كان هناك جدار مرتفع وفيه باب على شكل ثقب مفتاح كبير. وأخرج رافايل مفتاحاً من ثقب إلى جانب الباب وفتح به القفل، لينفتح الباب دون صوت، وأشار إليها بالدخول.

ودخلت بعد تردد، لتقف في الظلام وهو يغلق الباب وراءهما. على جانبي الباب من الداخل يتدلى مصباحان قديما الطراز، أضاءهما رافايل، ورأت أمامها شجيرات الورد، والمقعد المصنوع من اغصان الشجر، والرصيف المتشقق، واشتمت عطر الحديقة الإنكليزية الريفية عند المغيب، العابقة برائحة الورد واللافندر والزهور البرية.. قوية لدرجة تسبب اندفاعاً قوياً للحنين إلى الوطن. ولا بد أنها تنهدت أو شهقت، لأنه تكلم من فوق كتفها، برنة من السخرية في صوته:

- هل انت مندهشة لاكتشافك قطعة مخبئة من أرض وطنك في أملاك بربري؟

- لا!

الاحتجاج المنخفض الذي صدر عنها كان عفوياً. واستدارت، يتنازعها الكبرياء والخجل، وهي تعلم أن اعتذاره يستحق اعتذاراً منها بالمقابل.

- يجب أن تفهم، في أوقات التوتر من السهولة قول أشياء لا يعنيها الإنسان، ثم يندم عليها فيما بعد. ولكنها في بعض الأوقات، الدفاع الوحيد.

- أمام امرأة.. أجل. ولكن المرأة لا تحتاج لسلاح الكلمة..

أتعلمين يا سيلينا، أن قوة المرأة الفائقة تكمن في ضعفها؟ إنه أقوى سلاح، وأقوى دفاع، إذا اختارت أن تستخدمه في هذا المجال.

- إذاً أنا فاشلة فيه، وهذا واضح.

- وهل هذا صحيح؟

والتفّت يداه على كتفيها، ودفء قوته جذبها إليه مثل المغناطيس. وارتجفت. سحر الفتنة سرى في عروقها كالنار المجنونة، هذه الفتنة التي أحست بجاذبيتها منذ أول لقاء لهما. ولكنها حتى تلك اللحظة لم تكن قد أدركت مدى قوتها الكامنة في نفسها، قوة مغرية أطلقت كل احساس فيها بالشوق للاستجابة لتلك الجاذبية الخطيرة.

علمت بأنه سوف يديرها لتصبح بين ذراعيه، وبأنها ستكون أضعف من أن تقاوم. وحاولت أن تجبر أطرافها على الاستجابة لها، ولم تكن تعلم الآن أيهما تخاف أكثر، الرجل.. أم نفسها. ثم لمحت وميض الذهب وهو يتحرك، وبيأس أمسكت السلسلة الرفيعة التي تتدلى من ياقة قميصه.

- هل هذه ميدالية؟... إنها مفضلة لدى الرجال في هذه الأيام..

- ليس بالضبط... إنها تعويذة.

اصابعها المرتعدة جعلتها تعرف أن الشكل المكسور ليس لدائرة. وحدقت به، بنصف رؤية، تحس بشكل نصف مستدير وقضبان رقيقة تتقاطع فوقه. وسألها:

- هل أنت مؤمنة بالخرافات؟

- أحياناً. إنها رائعة... وغير عادية.

وتركت التعويذة تقع من يدها لتستقر مكانها على بشرة صدره. ثم تراجعت إلى الوراء، متمنية أن يهدأ قلبها عن الخفقان قليلاً.

- وهل تظنين أنها حلية جذابة؟

www.elromancia.com

- أجل، وأتمنى أن تجلب لك الحظ.

- ستفعل.

وتركها، ورفع يديه الى عنقه، وفي اللحظة التالية كانت السلسلة تمرّ من فوق رأسها، وهبط الثقل الذهبي الصغير ليستقر على صدرها. وقال رافايل:

- والآن ستجلب لك الحظ.

- أنا...؟ ولكن... ولكنك لا تعني.. لا لم أعني..

- ولكن نعم... إنها الآن لك... ربما أنت بحاجة لامتلاكها أكثر مني.

- اوه لا... لا أستطيع أن آخذها.. إنها... أنا...

- يجب أن تأخذيها.. إنها العادات. أنت ضيفتي، ولذلك كل ما أمتلكه يجب أن يكون لك إذا رغبتي فيه. وأنا واثق أنك لا ترغبين في كسر عاداتنا، وهي عادات حقيقية أؤكد لك، في كل أنحاء أرضنا. لو ان ضيفاً أعجب بأي شيء عند مضيفه، سيُعطى له، بكل صدق وإخلاص. سوف تكونين عدوانية إذا رفضت مثل هذه الهدية.

وشهقت بفزع، وماتت الاحتجاجات على شفتيها.. كيف ستتعامل مع هذه الصدمة الجديدة؟ لا تستطيع قبول مثل هذه الهدية، هدية من الذهب لها قيمة كبيرة. ومع ذلك لا تستطيع إعادتها. كيف تستطيع التذرع بجهلها للعادات، دون أن...؟ رافايل كان رجل لا يمكن التنبوء بتصرفاته، وفتحت شفتيها لتتكلم، فرفع يده محذراً:

- لا يا سيلينا، لا تغضبي ثانية، لقد كشف الليل عن الشرار في عينيك، وأنا أفضل كثيراً أن أراك هكذا.

وشعرت فجأة بأنها صغيرة أمامه، وشعرت بقوة رجولته تغمرها. وتلاعب الهواء الناعم بشعرها ثم عاد إلى الصمت. فقال بنعومة:

- لقد كشف الليل عن جمالك، وجعلك جذابة.

ذراعاه جذبتاها دون عناء إلى سحر فتنته. ولمعت النجوم في عينيه، قوة جسده الطويل كانت قاسية عليها، قوة غازية اصبحت أقوى من أن تبقى بعيدة عنها. لمسة ذراعيه من حولها كانت أجمل مما كانت تتصور، حتى عندما جذبتاها بقوة ودون رحمة. وأخذت ترتجف ولم تستطع الحراك، مع أن حواسها كانت تقول لها بأن تبتعد عنه. وقال لها بصوت أجش:

- ألا زلت عدوتي يا سيلينا؟

- أنا.. أنا لم أكن أبداً عدوتك.

- حتى عندما أثرت كل هذا الغضب فيك؟

- يستطيع المرء أن يغضب دون أن يخلق العداوة.

- وهكذا كنت أؤمن دائماً. وأنا سعيد.. أترين.. الخضوع سهل... وأكثر حلاوة!

- اوه.. لا!

وأجفلت مبتعدة، وكأنه ضربها، وحدّقت بشعلة الانتصار في عينيه. وبجهد جمعت شتات سيطرتها على نفسها، واستطاعت أن تضحك بسخرية «هذا لم يكن خضوعاً يا عزيزي رافايل».

- وماذا كان إذاً؟

- تستطيع أنت أن تسميه خضوع.. ولكننا نحن النساء ندعوه غزلاً.. ومن الممكن أن يكون جميلا مثل الخضوع تماماً...

قالت هذا من فوق كتفها وهي تستدير لتبتعد.

☆ ☆ ☆

٦ ـ قلب من حجر

بكل انصاف لرافايل، كان عليها أن تعترف، خلال الأيام التالية أنه لم يكن ذلك السجان القاسي القلب الذي اعتقدت في البداية أنه كذلك. ربما أنه أدرك أن احتجاز ثلاث فتيات معزولات في قادر كان مخاطرة قد تثير جواً من الخصومة غير المرغوب فيها، إذا لم يكن جواً متفجراً. ولكن مهما يكن الأمر فقد تأكدت أن الأيام التي تلت قد خطط لها تماماً. فالمكان الصغير على التلال الذي أشارت إليه ماريون، ثبت أنه فندق صغير جديد أقيم وسط مناظر غنية بالجمال على مرتفعات الأطلس.

في الصباح، سارت بهم السيارة، على مهلٍ بطريقة تسمح لهم باستكشاف ما حولهم، ثم عادوا بعد غياب الشمس بوقت طويل وبعد نداء المؤذن للعشاء في مأذنة جامع قادر. في اليوم التالي أخذهن إلى المزرعة، حيث جلبت لهم فتيات مبتسمات، الهدية التقليدية من البلح والتمر، ثم أخذهن فيما بعد لرؤية قادر. التقدير والاحترام

لرافايل أصبح الآن واضحاً، الأمير... أو القادر، كما يدعوه بعضهم، كان محترماً ومحبوباً.. وبفضله، عوملت الفتيات هكذا..

ولكن سيلينا، على الرغم من هذه الحرية، كان لها أسباب خاصة لتقلق في أكثر من مناسبة. لقد كانت تلاحظ دائماً الوجود القاسي والهادىء لمحمد والسائق الأسود الذي تذكره من ذلك اليوم في كازابلانكا. فلو أن فتاة منهن ابتعدت قليلاً، وقد لفت نظرها شيء مما يجذب انتباه السياح، فإن واحداً من خيالات رافايل أو هو نفسه يكون معها دائماً. وعلمت سيلينا أن التهديد لا يزال ماثلاً في ذهنه. وبنهاية الاسبوع، الذي أمضوه في منزل أحد أصدقاء رافايل في مدينة مراكش، كانت قد اعتادت على الحرس من حولها. ولكنها كانت بعيدة جداً عن تعويد نفسها على وجود رافايل نفسه.

مرارة ذكرى تلك الليلة في الحديقة، ساعدتها على إبقاء برودة عدائية في حضوره. ومع ذلك فقد كان الأذى قد حدث. كانت تستطيع أن تحافظ على تأدب متحفظ، ولكن لم تستطع أن تكبت اضطراب مشاعرها الغادرة. أقل ملامسة جسدية عرضية معه كانت تكفي لأن تعيد هذه المشاعر للحياة. حتى النظر إليه، والتقاط نظرته إليها كانت تعيد الذكرى بشكلٍ لا يحتمل.

وكان محتماً أن تلتقط عينا بيتي المراقبتان ما يجري. فسألتها فجأة في اليوم الذي تلا عودتهما من مراكش:

ـ ماذا دهاك؟

ـ لا شيء.

ـ اوه.. صحيح! أنت تبدين مضطربة أكثر من يوم قدومك الى هنا. أعتقد أنك اكتشفت أن رافايل لا يحب الفتيات الإنكليزيات.

ـ لست مهتمة بنوع الفتيات اللواتي يحبهن.

وحاولت تغيير الموضوع، فالتفتت إلى ماريون، التي كن يجلسن في غرفتها، ولمست قماش البلوزة الناعمة التي كانت الفتاة تقيسها. وكانت ماريون قد اشترت سروالاً تقليدياً من الحرير مع بلوزة شفافة، وقفطان من القماش المطعم بخيوط الفضة، وعباءة فضفاضة تدعى «المنصورية» تكمّل الزيّ.

وكانت العباءة المنصورية هي القطعة التي جذبت إعجاب الفتيات أكثر من باقي الثياب، بشرائطها المميزة الطراز بلون التركواز، في القماش الحريري الشفاف.

ـ أليست رومانسية؟... انتظروا حتى يراني رالف وأنا ألبسها.

ـ سوف يفترسك.. إذا لم يفعل رافايل هذا قبله.

وزال بعض الفرح من وجه ماريون لملاحظة بيتي هذه وصاحت:

ـ لا... ولكنك على حق، إنه لا يحب الفتيات الانكليزيات.

ـ أعجب لماذا؟ لا بد أن السبب طبع شقيقتي الغاضب.

وخلعت ماريون «المنصورية» وجلست على حافة السرير. وقالت:

ـ لا.. الأمر ليس كذلك. إنه بسبب أمه.. أمه كانت انكليزية وتركته عائدة إلى انكلترا عندما كان لا يزال صبياً صغيراً. ولا يحب أن يتحدث عن هذا الأمر.

ـ أتعنين أنها تخلت هكذا عن زوجها وولدها؟

ـ اعتقد أنه كان هناك رجلاً آخر في حياتها، رجل إنكليزي كانت تعرفه وهي شابة... خالي جان... والد رافايل.. عمل المستحيل لاستعادتها دون نجاح. كان يعبدها. ثم حصل له حادث بعد ثلاث سنوات بينما كان يركب الخيل، وبقي في الصحراء مكسور الساق، وعندما وجدوه كان الوقت متأخراً.

وصاحت بيتي بتأثر:

ـ أوه يا إلهي! مسكين رافايل، لقد مرّت عليه أوقات قاسية.

ولكن سيلينا لاحظت أن قلق شقيقتها كان مفتعلاً بطريقة ما. وعلمت أنها لم تسيء الحكم على شقيقتها بعد أن عادت الخفة إلى لهجتها وهي تقول:

ـ يجب أن يحاول أحد ما أن يعوض عليه. من الواضح أنه بحاجة لحنان امرأة وتأثيرها. لقد قلت لك أن تحاولي أن تكوني لطيفة معه يا سيلينا.. تصوري كل هذه الحاجة لحنان الأم المكبوت في ذلك الولد المسكين. مثل هذه الأشياء تناسبك يا سيلينا.. كنت دائماً تعطفين على البط الكسيح والأولاد الضائعين.

والتفتت إلى ماريون وتابعت:

ـ لقد كانت الأولى دائماً بحمل راية قضايا الضعفاء.

ـ اصمتي!

وبنظرة غاضبة إلى شقيقتها، وتقطيبة شديدة، خرجت سيلينا من الغرفة عائدة إلى غرفتها حيث أخذت تراقب الحديقة الهادئة بعينين تعستين. هذه النظرة غير المتوقعة على ما في حياة رافايل أصابتها بالصدمة. منذ البداية أحست بشيء مختلف فيه. بالمقارنة مع لويس لم يكن فرنسياً بالكامل، ولا إنكليزياً، وبالتأكيد لا يتناسب تماماً مع نموذج المواطن المغربي، رغم واقع أنه في وطنه الذي يدعوه بكل فخر أرض أجداده.

وتنهدت، الآن عرفت سر تلك الحديقة الصغيرة المخبأة ضمن جدران عالية، الانكليزية الطراز بشكل محير، لا بد أن الزوج الذي يقدّس عروسه الأجنبية، قد حاول أن يستورد لها قطعة من أرض بلادها.

ولكنها الآن وقد عادت بذاكرتها، تسللت إلى ذاكرتها فجأة دلالة

أعمق.. كان هناك تعمد للطريقة التي اخذها بها رافايل إلى تلك الحديقة المخبأة، حيث قام بتعليمها معنى الخضوع.

وأمسكت السلسلة والتعويذة، الملقاة على طاولة الزينة، منذ يوم أن عادت من الحديقة وانتزعتها، وقلبتها في يدها.. لماذا أعطاها لها؟ هذا لا يتفق مع افتراضات بيتي. فإذا كان المرء يكره شخصاً فهو لا يهديه أشياء خاصة ذات قيمة مرتفعة. وكلما فكرت بالتعويذة كلما زاد اقتناعها بأن لها قيمة شخصية لدى رافايل. إذاً لماذا؟

ودون وعي، رفعت يديها وأنزلت السلسلة في رأسها. الوزن البارد للتعويذة انزلق إلى صدرها وفي تلك اللحظة وقع ظل عليها عبر النافذة المفتوحة، ونظرت إلى الشخص الطويل ولم تستطع كبح شهقة.

ـ أستميحك عذراً.. لم أكن اقصد أن احدق بك.

لهجته كانت تبعث على الرعدة. وكذلك عينيه اللتين لاحظتا التعويذة على الفور، ولكنه لم يعلّق بشيء.

ـ هناك شخص يود رؤيتك.

ـ أنا؟

ـ تعالي.. هل الأمر مثير للدهشة؟ كان عليّ أن أعلم أنك ستخالفين رغباتي.

ـ ولكنني لا أفهم شيئاً! فلم أخالف رغباتك. لا بد أن هناك خطأ ما.

ـ ليس هناك من خطأ. اذهبي وانظري بنفسك. ستجدين زائرك في مكتبتي.

وسارت ببطء، متحيرة، عبر الشرفة، وعند الستائر المفتوحة للمكتبة توقفت، ورفرفت عينيها، واستدار الشخص في الداخل بسرعة

عند دخولها. ورفع يديه وأسرع إلى الأمام.

ـ صديقتي... أخيراً وجدتك.

كان هذا لويس بورشيل...

* * *

ـ حسناً يا لويس. اهنئك على اكتشافك لي.. انت ذكي لامع!

وانحنى لويس باعتراف لإطراء بيتي الساخر وتمتم:

ـ كان الأمر بسيطاً ولا أعرف لماذا لم أفكر به قبل الآن.

كانوا مجتمعين في الحديقة، بعد انتهاء وجبة المساء، ومن الواضح أن لويس كان مسروراً بالابتسامات من الفتيات الثلاثة، وسألته ماريون:

ـ كم تستطيع أن تبقى هنا؟

ـ أحم... أنا لا ارغب في أن أفرض نفسي على ضيافة المسيو بومان. وليس لديّ سوى عدة أيام من الإجازة.

ونظرت إليه سيلينا مفكرة... إنه يبدو أصغر عمراً مما لاحظته وهي في كازابلانكا. واكتفت بالجلوس بينما كان يتبادل الحديث مع الفتاتين. أمام رافايل تبدو طفوليته بارزة بحدة...

ومع ذلك فقد مر بالكثير وهو يقتفي أثرها، وبعد رحلة مرهقة استطاع أن يتحدى رافايل بومان بان ينكر أن الفتاتان تحت سقف بيته وقالت بيتي:

ـ كنت أرغب في رؤية وجهه عندما وقفت بالباب تطالب باعترافه بوجودنا.. ماذا قال لك؟

ـ بعد الدهشة الأولى، بدا عليه أنه ليس مندهشاً أبداً.

ومرت سحابة مريرة على وجه سيلينا، فهي تعلم جيداً لماذا لم يندهش رافايل... ولماذا لم يغضب. لن تستطيع إقناعه ابداً أنها لم

www.elromancia.com

تخبر لويس بمكان وجودها، أو حتى أن لويس لم يتلقى رسالتها، والتي لا تزال دون شك في مكتبه، بانتظار عودته. لويس، بعد أن اكتشف أنها لم تعد إلى الفندق قام ببعض التحريات من موظف الاستقبال وما علمه منه جعله يرتاب فوراً. ولم يطل به الوقت ليكتشف هوية صاحب منزل التعاويذ. ولم يكن الى قادر سوى خطوة. لا بد أن هذا الدليل الوحيد الذي قاد لويس، فأخذ فرصة عدة أيام وسافر إلى قادر. ولو أن سيلينا لها نفس اتصالاته ومعرفته بالبلاد، لكانت اقتفت اثر بيتي بنفس السهولة.

وبقي هناك ثلاثة أيام وتأثيره على بيتي كان ملحوظاً. فجو الضجر تلاشى وكأنه السحر، واحتكرت لنفسها رفقته بتصميم وقح، إلى درجة الاختفاء معه لجزء كبير من النهار. وفي الليلة السابقة لسفره ذهب الجميع لتناول العشاء في «كاراڤان سيرا».

ولم تتمتع سيلينا بتلك الأمسية ولم تستطع منع شعورها بالألم لاختلاف تصرفات رافايل معها عن تصرفاته مع ابنة عمته فجو الحماية الذي يشيعه دائماً حول ماريون كان مختلفاً تلك الليلة، ولكن تأدبه مع سيلينا كان الأكثر برودة مما مر عليها. فقد بدا مصمماً على أنها مسؤولة عن مجيء لويس. ولم يجعل الوضع أفضل عندما قالت ماريون مازحة:

ـ لقد اعتقدت أن لويس أتى للبحث عنك.

وقال رافايل «لا بد أنها أفضل خطة.. آنسة بريسلي» عودته إلى الرسميات معها أثرّ بها بطريقة لم تكن متحضرة لها، ونظرت اليه ماريون بحدة:

ـ لقد عدت إلى الرسميات.. هكذا فجأة.

ـ أعتقد أن الآنسة بريسلي تفضل الرسميات.

وتنهدت ماريون، وكأنها تدرك تماماً التوتر بينهما. ونظرت إلى التراس المضاء حيث يبدو طيف بيتي ولويس بشكل ضعيف بين اطياف اغصان البلح، كانا يقفان متلاصقين، ويدا بيتي ترتاحان على سترة لويس البيضاء وهي تنظر إلى عينيه. كانت هذه إشارة قديمة قدم حواء، مما جعل ماريون تتنهد، وقالت:

ـ انظروا إلى هذه النجوم وإلى هذه السماء.. لو أنني فقط... هذا ليس عدلاً!

وعلمت سيلينا ماذا تعني بالضبط. إنها نوع من الليالي ونوع من المكان للمشاركة، ليس مع فتاة أخرى تعاني نفس المشاعر ونفس الشوق. وقال لها رافايل:

ـ هذا أمر ليس حقيقياً... وأنت تعرفين هذا.

ـ وما هو؟

وابتسم للأحلام التي تبدو في عينيها.

ـ الجو السحري للرومانسية الذي يثير مثل هذا الحسد في قلبكما.

ولاحظت سيلينا صيغة الجمع في كلامه، فقالت ببرود:

ـ أنا لم ألاحظ هذا.

ـ لا... لأن المقومات الأساسية ليست موجودة.. أنا آسف... يهمني أن لا أرى مثل هذين الوجهين غير السعيدين. ولكن ما حيلتي؟ لا أستطيع ان آخذكما معاً تحت نور القمر وأهمس لكما بالأحلام التي أنا واثق أن لويس يهمس بها لبيتي في هذه اللحظات.

وللحظة حدقت ماريون بملامحه النحيلة الساخرة، وبدت أنها تتأرجح ما بين الضحك والبكاء. وكاد الشعور الأول أن يفوز لولا أن رافايل أضاف:

ـ وأنا واثق أنكما لا ترغبان في سماعها مني.

والتوى فم ماريون بالغضب:

- رافايل.. أنت وحش! لك قلب من حجر.. تجعل الأمر يبدو فظيعاً... وليس واقعياً..

- إنه ليس واقعي.. وهذا ما أحاول قوله.. لماذا من الممكن أن تعمى المرأة امام فخ الحب؟ يجب أن يكون لديها البراعة، والاطمئنان.. يجب أن تقوم بخداعها باللباس والتألق، ثم تكون مستعدة للعب دورها في العبث الذي لا طائل من وراءه.. لماذا؟

وردت عليه ماريون بحزن:

- لان هذه هي الطريقة التي نكتشف بعضنا بها.. إنها جزء من الوقوع في الحب، والفخ، كما تسميه. ليس خداعاً أبداً، إنه الدفاع، إلى أن نجد الحقيقة من وراءه.

- لهذا إذاً أنت تخبئين قلبك؟

السؤال كان موجهاً لماريون، ولكن النظرة التي رافقت السؤال كانت باتجاه سيلينا الصامتة، وأضاف:

- كلما فكرت بالأمر أكثر كلما اقتنعت أنك تجعلين من الأمر لعبة.

- ونحن نلعبها بهذه الطريقة.

- أتعنين، بالتجربة. لقد أصبحت انكليزية جداً بنظرياتك يا صغيرتي.

وبدت ماريون وكأنها سئمت من هذا الكلام:

- وأنت أصبحت مستبداً جداً.. أنت رومانسي مثل.. مثل...

التعبير المناسب تخلى عنها، وأنهت كلامها بتنهيدة ساخطة بينما انفجر رافايل بالضحك.

ودخلت بيتي ولويس ووقفا يحدقان بالثلاثي:

- ما هي النكتة؟

ولم يرد عليهما أحد. وجلست بيتي على الكرسي وهي تقول:

- إنها ليلة تشبه الجنة.. ومن المؤسف أن نتركها.

- ولماذا علينا أن نتركها؟

عينا لويس بدتا وكأنهما تفشيان سر. ولكن بيتي هزت رأسها قليلاً وبدأ الجمع يستعد للعودة إلى قادر. كانت رحلة صامتة لمدة ساعتين عبر الليلة الفضية النور، ولم يبدو أن أحداً منهم ينوي تبادل أي حديث عندما وصلوا الى المنزل، فذهبت ماريون إلى غرفتها بعد أن تمنت للجميع ليلة سعيدة، وفعلت سيلينا الشيء عينه. وذهبت إلى غرفتها، واستحمت وارتدت غلالة نومها. وسارت بقلق إلى الشرفة واتكأت على الحاجز الحديدي.

كل ما كانت تتمناه في تلك اللحظة، أن تدير ظهرها للجميع، بما فيهم بيتي... في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم يجب أن تكون عائدة إلى وطنها. عيد ميلاد ماريون أصبح قريباً جداً. وبعد أن ينقضي، فالحاجة لوجود شقيقتها هنا سينتهي أيضاً. وكذلك إقامتها الإجبارية.

ووقفت سيلينا، وهي على وشك الدخول الى غرفتها، ثم أجفلت عندما تناهى إلى سمعها صوت همسات. وعلى التراس تحرك ظلان تحت ضوء المصباح المنبعث من نافذة أخرى.

أول ردة فعل لها أن تتحرك بسرعة، ولكن الحذر، والرغبة في ان لا يراها أحد جعلها دون حراك. وانتظرت لترى بيتي ولويس يتابعان ما ينويان سراً. استطاعت أن ترى طرف رداء بيتي وأن تسمع همساتها، على الرغم من أنها لم تميز ما كانت تقوله. ثم تحركت نحو الحديقة، واستدارت نحو رفيقها وهو ممسك بيديها وكأنه يتوسل لشيء ما، وتعرفت سيلينا على الرفيق... لم يكن لويس.. بل كان رافايل.

www.liilromancia.com

وقال شيئاً، وأحست سيلينا بأن جدالاً يجري بينهما، ثم ضحكت بيتي بصوت خافت، ولهجة الانتصار لم تكن خفية. ثم سارت إلى الأمام. وانضم الظلان ليصبحا واحداً، وبقيا واحداً. وأفلتت من سيلينا تنهيدة مرتجفة.

ودون أن تهتم فيما لو أن وجودها قد انكشف أم لا، ركضت إلى داخل الغرفة وأقفلت الباب بحركة قلقة. وخلعت روبها وانسلّت الى فراشها. ثم أطفأت النور.

واستلقت وهي متصلبة وحدقت في الظلام. في تلك اللحظة كرهت العالم كله، وأكثر من أي شيء كرهت شقيقتها ورافايل بومان.

* * *

شعور الكآبة ألقى ظلاله عليها وكأنه غيمة غير واضحة المعالم، عندما استيقظت في الصباح التالي. وعادت إليها الصحوة الكاملة ومعها الذكرى، واستدارت في فراشها، وأغرقت وجهها في الوسادة، وبقيت هكذا لفترة طويلة، محاولة التغلب على كرهها لتتحرك نحو مواجهة اليوم الجديد.

ومدت يدها لتنظر دون وعي إلى ساعتها، وعندما وعت الحقيقة أقسمت، أن أول شيء ستفعله عندما تعود إلى الوطن أن تشتري ساعة جديدة.. حسناً.. لقد كانت بلهاء طوال الوقت.. ألم تكن كذلك؟ تركض وراء شقيقة تستطيع تدبير أمر حياتها الخاصة كما تشاء وترضى، وتصل بنفسها إلى هنا في مكان، ما من شك أنه خارج العالم، وفي الواقع هو سجن.. لو أنها قامت بأي جهد لتغادر هنا، هل سيمنعها رافايل؟ إنه سؤال لا تهتم بأن تفكر به كثيراً ولا أن تهتم برافايل بومان نفسه... وجعلها ذلك تشعر بالبؤس حتى أنها أرادت أن تقذف بالأشياء...

وجلست في السرير، ورمت الأغطية عنها. بضعة أيام ستمر بسرعة، ولن تضع قدمها بعد الآن في المغرب! كانت تخرج من الحمام عندما وصل شاي الصباح، أتت به من بين كل الناس بيتي التي بدت وكأنها مليئة بالنشاط بالنسبة لهذا الوقت من الصباح. وسألتها سيلينا:

ـ ماذا يجعلك مرحة هكذا هذا الصباح؟

ـ لا أظن أنك في وضع ملائم لتسمعي ما الأمر. انتظري قليلاً... واشربي الشاي، سأذهب لأحضر لك زوج جوارب.

وحدّقت بها سيلينا بعينين واسعتين وهي تخرج.. بيتي متفائلة؟ ومدت يدها إلى الشاي وهي تتساءل ما إذا كانت شقيقتها على ما يرام. ولكن، بعد عبثها مع لويس يجب أن تكون قد استعادت قوتها، خاصة بعد أن أمضت جزءاً من الليل تحت ضوء القمر مع رافايل.

وتعجبت أكثر عندما عادت بيتي وأعطتها زوجاً من الجوارب النايلون مع مشدّ مشبك من أفضل ما رأته سيلينا.

ـ خذيها.. لديّ ما يشغلني إلى أن أعود.

وأعادت سيلينا الأغراض إلى مغلفها الذهبي ونظرت إلى وجه شقيقتها، هناك شيء ما وراء هذا السخاء، فسألتها بارتياب «ماذا تريدين؟».

ـ لا شيء، حقاً.. ما عدا.. لقد رتبت مع رافايل أمر بقائك إلى ما بعد عيد ميلاد ماريون.. أليس كذلك؟

ـ الترتيب، ليس بالكلمة الصحيحة... ولكن هذه هي الفكرة العامة التي نجح رافايل بتحقيقها.

وضحكت بيتي لملاحظة شقيقتها الساخرة.

ـ لقد أصبح هذا من التاريخ. يكاد الامر ينتهي.. لا أعرف لماذا

أفتعل كل هذا الضجيج... ولكن الأمر يستحق.

- هل هو يستحق؟

- أريد منك معروفاً يا سيلينا..

- لقد ظننت هذا.. هيا، تابعي...

- أريد العودة إلى كازابلانكا مع لويس هذا الصباح. لقد تحدثنا بالأمر في الأمس. كانت فكرته، ويريدني أن أعود لوظيفتي معه، سوف يفتتحون فرعاً أكبر في الرباط، وسيتولى لويس إدارته، أليس هذا رائعاً؟ يقول إننا سنقابل كل أنواع الناس المهمين. ونرفه عن نخبة القوم. إنها فرصة رائعة...

- مهلك لحظة.. أنت لم تنتهي من عملك هنا بعد.. ثم ماذا عن رحلتك؟

- أستطيع دائماً أن أحصل عليها فيما بعد. هل تمانعين يا سيلينا لو أنني ذهبت اليوم؟

- أنت تعرفين جيداً أنك ستذهبين مهما قلت لك.. لذا لماذا تسألين؟ ولكنك لا تستطيعين الذهاب.. أليس الأفضل أن تسألي رافايل أولاً؟

- اوه... لقد سألته!

- ووافق؟

- مثل الحمل...

مثل الحمل! رافايل! واستدارت سيلينا لتمشط شعرها:

- انا سعيدة لأسمع هذا الخبر... تهنئتي لك، الأفضل أن أبدأ بتوضيب ملابسي.

- أوه لا... لا تستطيعين.. هذا تماماً ما...

- لا أستطيع؟ إذا كنتي عائدة مع لويس هذا الصباح، سأكون معك

في تلك السيارة أيضاً.

وأغمضت بيتي عينيها وهزت رأسها.

- كنت أعرف أنك ستقولين هذا. أرجوك سيلينا.. لا تكوني صعبة المراس. أترين، هذا كان شرط رافايل. قال إنني أستطيع الذهاب شرط أن تبقي أنت مع ماريون حتى يوم الاثنين. بعد ذلك سيأخذها إلى كازابلانكا، وأنت ايضاً بالطبع.. وقلت له إنك ستفعلين هذا.

- قلت إنني... كم أعصابك باردة!

- ولكن ليس لديك شيء لتسرعي إليه. الأمر فقط لبضعة أيام.

- إذا كان لبضعة أيام فلماذا لا تبقين أنت؟

- لقد اخبرتك.. على كل الأحوال لا معنى لوجودنا هنا معاً، الآن. لأجل ماريون فقط، لمجرد بقاءها برفقتك. ولا حاجة لتقلقي حول الأشياء الأخرى، تلك كان فكرتنا نحن، كما تعلمين، بعد لقاءنا مباشرة، وعرضنا الأمر على رافايل.

- أتعنين تغيير الهويات؟

- أجل.. لقد بدا الأمر مزاحاً. ولكن رافايل لم يعجبه هذا في البداية، ثم سألني بعد بضعة أيام إذا كنت جادة فيما أقول، وإذا كنت على استعداد للمضي في هذا لبضعة أسابيع وأبقيه سراً، حتى دون أن أخبر سوزان. وسوف...

- سوزان؟ هل هي...؟

- الأميركية، إنها تمضي نصف السنة هنا، لقد تعرفت عليها في مكان ما. نسيت أين، وقابلت ماريون عندها. إنها صديقة قديمة لرافايل.

- سوزان صديقته؟

- صديقة مقربة جداً منه. سوف تحبينها.

www.elromancia.com

ـ وهل سأفعل؟.. حسناً الجواب هو «لا» إذا غادرتي سأغادر معك.. ولا أرى سبباً يدفعني لإنهاء عملك لك بينما تذهبين مع لويس لتمرحي.

ـ هل تغارين؟

ـ منك ومن لويس؟ لا أبداً.. إنه المبدأ.. بعد كل ما... لا...

ـ لقد قال رافايل إنك سترفضين. أوه.. ليكن في قلبك رحمة. كل ما قلته لإقناعك ذهب سدى.

ـ وماذا كنت تتوقعين؟

ـ لست أكيدة. لست أدري ما كان يتوقع رافايل ليلة أمس. أظن أنه اعتقد أنني أدعوه لمغازلتي. ولكن لم يبدو أنه كان جاداً.

ـ عما تتكلمين..؟

ـ عن رافايل ليلة أمس عندما طلبت منه أن يعفيني من الأيام الباقية.

ـ ليلة امس.. في الحديقة.. أهذا ما كان...؟

ـ هل رأيتينا؟ على كل لقد نجح الأمر. مثل السحر. عليك دائماً باستخدام الفتنة قبل الغضب، يا شقيقتي العزيزة الصغيرة، وستندهشين كيف ستنجحين. مع الرجال بالطبع.

ـ ما من شك، لن تضبعي فتنتك على النساء.. أليس كذلك؟

ـ أتمنى لو تغيري رأيك.. صدقاً، أنا آسفة حول كل سوء التفاهم في البداية. أدرك الآن أن ذلك قد أقلقك كثيراً.. ولكنني شعرت بالأسف على ماريون. ليس لها أحد هنا سوى رافايل. وأظن انها قلبياً تخاف منه قليلاً. إنها تخاف أن يبدأ بإدارة حياتها في المستقبل، وليس لديها أية فكرة عما سيحدث لها، وهي تحبك.

ـ ولكنني لا أستطيع عمل شيء لها، ومع ذلك سأفعل إذا كان الأمر

ممكناً.

ـ على الأقل سيكون معها شخص تثق به إلى أن يسوى الأمر في الأسبوع المقبل.

ـ كيف أصبحت متفهمة هكذا فجأة؟

ـ يناسبني أن أكون متفهمة. وإذا لم تقومي بهذا لأجلي فافعليه لأجلها.

ـ حسناً.. سأبقى.

وتلقت عناقاً حاراً مرحاً من بيتي، وكل الابتسامات الآن فقد نجحت في إقناعها.

ولكن سيلينا لم تستطع ان تمنع احساسها بالتشاؤم عندما بدأ الوداع، وصعدت بيتي إلى سيارة لويس. ونظرت إلى رافايل وهما يدخلان المنزل وقد زاد إلى تشاؤمها إحساس بالكآبة.

واختفى رافايل بعد قهوة منتصف الصباح، تاركاً الفتاتين للهوهما. وبعد ذلك بقليل، اشتكت ماريون من الصداع. لم تتناول غداءها بشكل جيد، فقالت لها سيلينا مقترحة:

ـ خذي بعض الأسبرين ونامي قليلاً...

ـ إن الطقس حار جداً، ولا توجد نسمة هواء...

واعترفت سيلينا فعلاً أن الطقس حار جداً، وابتسمت لها وهي تراقبها تتمدد على الفراش.

ـ ستيلاشى الحر عندما تأتي برودة المساء.

ولكن ذلك لم يحصل. وفي اليوم التالي كانت ماريون لا تزال شاحبة وفاترة الهمة وتشتكي من انحراف صحتها. ولم تستطع سيلينا إلا أن تلاحظ أن ماريون كانت قلقة حول شيء ما. وأصرّ رافايل، عندما علم بالأمر، أن ترتاح وتبقى في غرفتها، وقبل أن يذهب لزيارة

www.elromancia.com

المزرعة قال لسيلينا:

- السبب هو الحر، ولا أظن أن بها أي سوء. على كلٍ، إذا كنت تعتقدين أن هناك شيء خطر فسأرسل محمد ليأتي بالطبيب.

وعادت سيلينا إلى غرفة ماريون. كان عليه أن يظهر اهتماماً أكثر، فربما تكون ماريون قد التقطت عدوى ما. ونظرت الى صينية الطعام التي لم تمس ثم الى وجه ماريون البائس.

- هل أنت واثقة أنه صداع فقط؟

- أجل، صداع فقط... أوه! لا أعلم ماذا بي. أرغب فقط في أن ينقضي يوم الاثنين.

- عيد ميلادك؟ وماذا سيحدث بعده؟

- سيأتي المحامي، وستتم بعض الإجراءات الرسمية وما شابه. وعليّ أن أظهر أدلة تحقيق الشخصية، ثم.. سنعود إلى كازابلانكا. وأتمنى أن أعرف ماذا سيحدث بعدها، أنا...

وتنهدت، ثم أدارت وجهها.

- أتريدين العودة إلى انكلترا؟

- في الوقت الحاضر... أجل، سأتخلى عن أي شيء للعودة. ليس لأنني لا أحب هذا المكان، ولكنني أكره فكرة أن أبقى هنا. أريد أن أكون حرة في العودة إلى وطني، أو أن أعود إلى هنا كما أشاء. ولا أرغب في أن أختار مكاناً واحداً.

- ربما لن يكون عليك أن تختاري.

- هذا ما قالته بيتي. ولكن رافايل هو الوصي عليّ ويستطيع منعي، إلا إذا تخليت عن ميراثي.

- وهل الإرث مهم لهذه الدرجة لك؟

- في البداية ظننت هذا. ولكنني الآن لست واثقة. لو أن الأمر

يتعلق بي فقط... ولكن الجميع يكره فكرة أن يحصل خالي جوليان على كل شيء. إنه رجل كريه. لم ألتقه أبداً، ولكن حسب قول العائلة فإنه لا يهتم بأي شيء سوى نفسه. لقد أخرجه جدي من المشاكل مرات ومرات عندما كان شاباً. ثم تزوج أرملة شابة واستولى على أعمال زوجها في مرسيليا، وفي خلال سنتين أفلس. وساعده جدي من جديد، بسبب زوجته وطفليه، وقال إنها ستكون المرة الأخيرة. بعدها لم نسمع عنه شيء، إلى أن توفي جدي وأتى خالي ليعرف ما إذا ترك شيئاً له.

وعضّت سيلينا على شفتها، ولاحظت العرق على بشرتها. ووانتها فكرة فقالت:

- لماذا لا تنتقلين إلى غرفتي؟ إنها في الجهة الأخرى من المنزل، ولا تتحمل في هذا الوقت حرارة الشمس كاملة.

- ألن تمانعي؟

- أبداً.. هيا بنا.. ستجدينها أبرد من هذه بكثير.

ومدّت سيلينا يديها لتساعد الفتاة على الوقوف. وبعد أن تم الانتقال، غطّت ماريون بنوم عميق لم تستيقظ منه سوى عند الغروب. وعندما استفاقت كانت تبدو في حال أفضل، وما أثبت ذلك، تناولها أول وجبة طعام كاملة منذ يومين.. وعندما انتهت من الطعام قالت:

- لقد كنت لطيفة جداً معي... الأفضل أن أنتقل إلى غرفتك وأتركك لترتاحي.

- لا حاجة بك للانتقال. ابقي هنا حتى الغد، وإذا كنتِ عندها بخير تستطيعين الانتقال مساء الغد. سآخذ ثيابي الليلية وروبي.

- لا تزعجي نفسك استخدمي ما شئتي من أغراضي...

ونظرت سيلينا إلى أغراضها، ثم أخذت البيجاما فقط.

www.elromancia.com

ـ هذا كل شيء.. لن أحتاج غيرها، على كل، لا أبعد عنك سوى باردات قليلة.. أراك غداً.

وعندما بلغت الباب قالت ماريون فجأة:

ـ هل لك أن تطلبي من رافايل أن يأتي ليراني؟

ـ طبعاً.

ووضعت سيلينا أغراضها في الغرفة الأخرى، وذهبت لتبلّغ رافايل طلب ماريون. ووجدته في مكتبه، جالساً إلى الطاولة منهمكاً بدراسة بعض الأوراق. ونظر إليها وعلى وجهه تساؤل مؤدب، وهي تبلغه الطلب. وهز رأسه قائلاً:

ـ حسن جداً، سأذهب لأراها عندما أنتهي من هذا.

وانتظر، متوقعاً منها أن تقفل الموضوع. ولم تتحرك، فحدّق بها «حسناً؟ ما هناك؟».

ـ ماذا ستفعل بخصوص ماريون؟

ـ بخصوص ماذا؟

ـ بخصوص مستقبلها.. إنها... أظن أن ماريون قلقة.

ـ ولماذا يجب ان تقلق؟

ـ إنها قلقة حول مستقبلها.

ـ لا حاجة بها لأن تقلق. مستقبلها مؤمن... وأخشى انني لم أفهم.

ـ كنت أخشى أن لا تفهم. أوه أرجوك. لا تظن انني أعيد قول الكثير من الأشياء التي قالتها، الأمر ليس كذلك أبداً. ولكنني واثقة أنها تتساءل عن ما خططته لمستقبلها، وما إذا كنت ستصرّ على أن تتقيد بشروط تلك الوصية.

ـ بالطبع سأصرّ على هذا. أنا مضطر، على أساس احترام إرادة جدي.

ـ إذاً ستصرّ على بقائها هنا؟

ـ هنا موطنها الآن. وهي تعرف هذا، لقد توضح لها هذا منذ البداية.

ـ أعلم هذا. ولكن ألا ترى؟ لقد تربت في انكلترا منذ أن كانت طفلة. كل أصدقاءها هناك، وكل شيء أحبته، وكل من كبرت معهم.

ـ سوف تحب قادر.. وليس من سبب يمنع أن تزورها عائلتها واصدقاؤها هنا.

ـ إذاً، صحيح أنك تنوي إجبارها على البقاء هنا.. حسناً، أظن أن هذا أمر مريع. جدك ليس له الحق بأن يضع مثل هذا الشرط، وأظن أنك غير إنساني في إصرارك على إتمام هذا الشرط. إنك تدفعها لأن تبيع حريتها.

ـ لا أحد يدفع ماريون لأن تبيع أي شيء. وأعتقد أن هذا ما ترغب في رؤيتي لأجله. أنتِ لم تضيعي الوقت لاستخدام نفوذك عندها آنسة بريسلي.

ـ أنا لم أستخدم أي شيء. لقد قلت لك فقط ما أفكر به، وأشكر الله أنك لا تستطيع منعي من التفكير...

ـ فهمت.. أنت تعتبرين أن الحياة في قادر غير لائقة.

ـ اجل... هذا صحيح.

ـ انها بعيدة جداً عن المقاهي وصرعات الأغاني؟ وعن حرية إشباع كل الرغبات. هل هذه هي الصفات التي تبنين عليها إحساسك بالقيم؟

ـ لا، وإذا كنت تظن بنا هذا فهذا يظهر كم هي ضئيلة معرفتك بحياة ماريون الأخرى. إنها لا ترتاد المقاهي ولا هي أنانية. ألا يمكن أن تدخل في رأسك أنها ممزقة بين ولائين.

ـ أنا اعرف عن ابنة عمتي أكثر مما تتصورين وأنا أتكلم عنك.

www.elromancia.com

- صحيح.! إذاً، أفضل أن أبقى بعيدة عن الموضوع. وأنا لم أرغب في أن اكون جزءاً منه منذ البداية.

- لقد أوضحت هذا الواقع منذ البداية. كذلك أوضحت أنك قررتي أن ابنة عمتي بحاجة إلى بطل ينقذها. مسكينة تلك الفتاة الغنية.. الوحوش يسيئون معاملتها... أكنت مخطئة أم لا، يبدو أنك وجدت الكثير في بلادنا لإثارة تعاطفك.

- أجل.. بالتأكيد... ولكن من الأفضل أن يكون لدي تعاطف خاطىء بدل أن لا يكون لدي أي تعاطف أبداً.

ورفعت رأسها، وسارت ببرود عبر التراس. ولكن عندما بلغت الغرفة عاودتها المشاعر المضطربة التي يثيرها دائماً بها. إنه لا يحتمل! هل يتوقع من الجميع إطاعته، وأن لا يجرؤ أحد على مناقشة قراراته؟ الخضوع! على الأقل هناك فتاة عبرت في حياته لن تخضع لإرادته.

وارتدت بيجامتها الحريرية الرقيقة، وحاولت إقناع نفسها بأنها قامت بمعركة جيدة معه. ورافايل لم يترك لها فرصة كبيرة بالطريقة التي أجبرها بها على القبول بخططه، ولكنها على الأقل لم تتركه يشك أبداً في رأيها به، ولو أن هذه الفكرة لا تعزيها كثيراً.

وكانت على وشك الدخول في فراشها عندما تذكرت كتابها. وترددت لحظة، ولكنها أدركت أنها لن تستطيع النوم دون قراءة، ومدت يدها لتتناول «منصورية» ماريون الملقاة على كرسي. لن يستغرقها الذهاب إلى غرفتها أكثر من دقيقة.

وتركت الستائر مفتوحة والمصباح قرب السرير مضيئاً. وخرجت بسرعة عبر التراس، ولكنها توقفت عندما رأت من في الغرفة. إنه رافايل، واستطاعت أن تسمع لهجته العميقة تختلط مع صوت ابنة عمته الناعم.

واستدارت عائدة إلى الغرفة التي تركتها، وفجأة شعرت بالحزن يهبط عليها وكأنه حمل ثقيل. لماذا كانت بهذا الغباء؟ لو أن عندها تفكير سليم لكان عليها أن ترفض أن تستمع لرجاء بيتي وتصر على الذهاب معها.. الأمر سخيف جداً أن يقوم رافايل بوضع شروط لبقائها. ما هو الحق الذي يملكه لإجبارها؟ ثم ما هو الحق الذي جعله يترك بيتي تغادر هكذا؟

واكملت طريقها إلى الغرفة. واستدارت بشكل آلي لتغلق الباب، وانتهى كل شيء قبل أن تستطيع الصراخ.

ظلان تحركا من ورائها. ودُفعت قطعة قماش إلى فمها ورُبطت جيداً. ووُضع قماش أسود فوق رأسها. ورُبطت ذراعيها إلى جانبيها، وكذلك رجليها، وانتزعت بقسوة عن الأرض.

صراخها «رافايل!» اختنق في حنجرتها، وحُملت في الظلام دون حراك.

☆ ☆ ☆

٧ ـ الصحراء قدرك

مختطفو سيلينا قاموا بعملهم بسرعة وصمت. وحملها أطول رجل بين الثلاثة عبر التراس الخارجي ثم نحو الباب الجانبي المفتوح. وركض أحدهم في المقدمة بينما تبعه الثالث، وبيده شيء غير واضح على استعداد لاستخدامه في الهجوم إذا استدعى الأمر.

ولكن احداً لم يسمع أي صوت ينم على أن شيئاً قد حدث. وعند البوابة الرئيسية كان محمد يرقد فاقد الوعي والدماء تنزف من جرح في رأسه بعد أن تلقى ضربة على رأسه في الظلام، وفي الغرفة كان رافايل بومان يتمنى لابنة عمته ليلة سعيدة، قبل أن يخرج إلى الحديقة ويشعل سيجارة، ويفكر ببعض القضايا التي تنتظره في اليوم التالي...

خارج جدران المنزل، كانت سيارة لاندروفر تنتظر مطفأة الانوار، تحت غطاء شجيرات نخيل كثيفة. ووصل أول الثلاثة إلى السيارة وجلس خلف المقود، وصعد الآخر إلى جانبه بينما رمى الثالث سيلينا

في مؤخرة السيارة وقفز ليجلس إلى جانبها.

ودار محرك السيارة، وانطلقت بسرعة على الطريق الذي يقود في الاتجاه المعاكس لقادر، نحو الصحراء.

الارتجاجات كانت تدحرج سيلينا في مؤخرة السيارة دون رحمة وتجعلها ترتطم بألم بجوانبها المعدنية. وعيها كان لا يزال يدور من الصدمة والخوف. فقد حدث الأمر بسرعة. وأخذت تقاوم بضراوة، محركةً رأسها يمنة ويسرى محاولة التخلص من الرباط فوق رأسها. كان نوعاً من الأكياس. ولكن مقاومتها كانت تزيد من شدة الرباط، وأخذ قلبها يخفق بسرعة مخيفة. نقص الهواء الذي يصل إليها جعل الخوف من الاختناق أمر حقيقي. وبقوة فجائية استمدتها من الرعب حاولت أن تضرب رجليها على أرضية السيارة.

جهودها لم تذهب عبثاً، وتوقفت اللاندروفر وأحست بشيء ناعم يلامس قدميها، ثم يدان من حولها تجذبانها إلى وضعية الجلوس، حيث ارتاحت على أرضية السيارة، ثم عادت السيارة للتحرك. أين سيأخذونها؟ ولماذا؟ وماذا سيحدث لها؟ ومن هم؟

وفجأة انزلقت إلى الأسفل فوق جانب الاطار الداخلي وأغمي عليها.

لم يكن لديها أية وسيلة لمعرفة كم بقيت مغمياً عليها. قد تكون دقائق أو ساعات قبل أن تفتح عينيها وتتحرك، وأحست بوهم أنها حرة، ولكن لفترة قصيرة، لقد أزيل الكيس عن رأسها، وهذا كل شيء. يداها ورجلاها ما زالتا مقيدتان. والقماش لا يزال حول فمها.

تدريجياً، أصبحت عيناها الفزعتين معتادتين على الظلام. وبدأت الأشكال تتضح. كانت السيارة لا تزال تسير في الظلام. ترتج فوق الطريق الوعرة التي تقود نحو ما لا يعلمه سوى الله.

وأدارت وجهها لترى قسمات وجه رجل أسمر قاتم، كان مسترخياً قبالتها، ووجهه في الظل، ضوءان خافتان كانا يشيران إلى مكان عينيه، المراقبتين لها. وتحركت من جديد، وأخذت تصطدم بجوانب المركبة، ولكنه لم يعرها التفاتاً.

ومرت ساعة وراء ساعة والكابوس مستمر، إلى أن بدت أوائل خيوط الفجر في السماء، وعمّ النور الكامل بسرعة، ثم توقفت اللاندروفر. ونزل السائق، وهو شاب عربي نحيل، والرجل الآخر، واستدارا نحو مؤخرة السيارة. وبدآ محادثة غير مفهومة مع الرجل الملتحي. واستدار الملتحي نحوها وفك قيودها. وانتظر إلى أن دلّكت أطرافها، ثم مد يده لينزلها. ثم جذبها من ذراعها ليوضح لها أن عليها أن تتبعه، وتراجعت إلى الخلف محاولة أن تقاوم، وأسرع إليها الشاب العربي، والشر على ملامحه. كلماتهم وإشاراتهم كانت واضحة: إن من العبث أن تهرب، فسارت باضطراب عبر الممر الحجري الضيق.

لم يكن لديها أدنى فكرة عن مكان وجودها، ما عدا أنها في مكان مقفر. مرتفع من الصخر الرملي العالي يرتفع على احد الجوانب وإلى الجانب الآخر امتداد واسع مقفر تنتشر فوقه الحجارة، في صحراء مترامية الأطراف. ونظرت إلى اللاندروفر المغبر، وشاهدت الرجل الثالث يخرج كيس كبير لا شكل له، من السيارة. ولحق بهم بعد أن وصلوا إلى ما يشبه الكهف في المرتفع الصخري. حيث أدخلها خاطفوها وأخرجوا من «الكيس» مأكولات لها رائحة قوية. على الاقل سوف يطعمونها... كما الخروف قبل الذبح!

اللحم المجفف الذي قدموه لها كان أكثر مما يمكن أن تتحمله، والماء من قربة جلد الماعز، كان ساخناً ويصيب بالغثيان. ولكن

العطش تغلب على اشمئزازها وشربت بشراهة. وتركوها لفترة واستطاعت أن تأكل قطعة خبز وحفنة من التمر. واستنتجت الإمكانية الوحيدة لسبب اختطافها، لا بد أنهم ظنوها ماربون، وحتى لو فهموا احتجاجاتها فمن المستبعد أن يصدقوها. إذاً، مخاوف رافايل كان لها أساس قوي. والتهديد بالخطف لم يكن فارغاً. ماذا ستكون ردة فعلهم عندما يكتشفون الحقيقة؟

بعد بضعة دقائق عادوا إليها ثانية، وأشاروا نحو اللاندروفر. واستمرت الرحلة، فوق الطريق الوعرة التي لا علامات عليها، ميل بعد ميل، ساعة بعد ساعة، وبصمت، بينما كانت الشمس ترتفع عالياً في السماء وتجعل الحرارة غير محتملة. كان واضحاً أنهم لم يعودوا خائفين من أن تهرب، لأنهم تركوها حرة تتخذ أي وضع مريح تشاءه.

وتوقفوا مرة واحدة، ليبرد محرك السيارة، ويشربوا بعض الماء، ثم تابعوا السير في الصحراء التي تلهبها الشمس... ودار رأس سيلينا، محاولة الهروب من كل هذا بالنوم. وايقظتها هزة قوية من يد عجفاء. فنزلت من السيارة وهي تتعثر، وتنظر إلى أين وصلوا.

الشمس كانت قد بدأت بالمغيب فوق الصحراء الملونة باللون الأحمر كالدم، صابغة الأحجار المربعة للبناء الذي أمامها بالأحمر الزاهي. بدا البناء كأنه حصن قديم أو مركز صحراوي، وهو الآن مدمر جزئياً. وقادوها عبر مدخل بابه القديم يتدلى من مزالج مكسورة، ثم على طول ممر مظلم مليء بالرمال الناعمة التي تكدست هناك عبر السنين. وبدا لها شعاع أمل، قادها إلى أفكار مجنونة... لو أن الفرصة سنحت لها لتتسلل من هذه الخرائب... ثم تصل إلى اللاندروفر، وتديره، ثم تتبع الأثر.. لا بد أنه سيوصلها إلى مكان ما... ولكن بارقة الأمل هذه تلاشت بسرعة عندما فتح مختطفوها باباً

ثقيلاً ودفعوها إلى ظلمة دامسة وراءه، وأغلق الباب بصوت قوي، وسمعت صوت مفتاح يصرّ داخل قفل حديدي قديم الطراز.. وأصبحت سيلينا لوحدها.

* * *

بقيت في الزنزانة الحجرية الصغيرة ليومين، كانا أطول يومين مرا عليها في حياتها. الضوء والتهوية الوحيدين يأتيان من نافذة صغيرة في أعلى أحد الجدران. وخلال النهار كان الغبار والحرارة يتدفقان إلى الداخل، وخلال الليل كان البرد يخرج من الحجارة ويتسلل مع أصابع القمر الطويلة من خلال قضبان النافذة.

ولم تعد ترى الرجال الثلاثة الذين خطفوها، وقدّرت بأنهم مأجورون، مثلهم مثل المرأة المتجهمة الوجه التي كانت تجلب لها الطعام والماء ثلاث مرات في اليوم. وكان واضحاً أن المرأة لا تتكلم الإنكليزية.

بعد الليلة المرعبة الأولى، أخذت سيلينا تفكر بطريقة للهرب، ودفعها الخوف مضافاً إليه الغضب للتفكير بالهجوم الجسدي، فلو أنها استطاعت التغلب على المرأة، فهل بإمكانها أن تركض بما فيه الكفاية لتبتعد؟ المرأة مقيدة بجلابيتها الفضفاضة السوداء، ولو استطاعت أن تجعلها تتعثر، وأن تفقدها صوابها بالسلاح الوحيد بين يديها، ذلك الإبريق الثقيل... ولكن هل بإمكانها أن تجبر نفسها على إحداث إصابة؟ فكرة العنف الجسدي كانت بغيضة على سيلينا، ولكن عليها أن تفعل شيئاً. فهم لم يظهروا أية رحمة، وكيف لها أن تعرف ما هي ردة فعلهم عندما يكتشفوا غلطتهم؟ وماذا سيحدث لها؟

العقرب الذي برز لها من بين شقوق الجدار دفعها أكثر إلى العمل، وأدركت انها لن تستطيع تحمل المزيد. وعندما سمعت

أصوات الأقدام في الخارج وبدأ صوت المفتاح في القفل، استعدت.

ووقفت خلف الباب وهو ينفتح، ممسكة ببقايا قماش «منصورية» ماريون التي تمزقت الآن، وعندما دخلت المرأة رمت سيلينا القماش فوق رأسها ودفعتها بعنف مما جعلها تقع منبطحة على وجهها وسط تحطم ما على الصينية التي تحملها، ثم هربت إلى الخارج، إلى الحرية.

ولكن الحرية استمرت ثلاث خطوات فقط، بعد أن اصطدمت بالولد الذي كان يقف في الخارج.

كان قوياً ونحيلاً، ولم تكن سيلينا نداً له. وبعد مقاومة قصيرة دفعها ثانية إلى الزنزانة، وأقفل الباب وأسرع لمساعدة المرأة. ثم استدار إلى سيلينا، وكان في وجهه نظرة توبيخ فقط، وقال بهدوء:

ـ ما كان يجب أن تفعلي هذا. إنها لم تؤذيك. لا أحد آذاك هنا.

ورفرفت عينيها من خلال دموع الغضب الساخنة التي كانت تحرقهما، وصاحت:

ـ أنت تتكلم الإنكليزية! لماذا أنا هنا؟ كيف تجرأون على احتجازي؟ ليس لكم الحق. أنا إنكليزية. وأريد أن أعرف لماذا وإلى متى تظنون أنكم قد تنجون بفعلتكم هذه... أنتم...

ـ أنا لا أعلم شيئاً. أنا أطيع الأوامر فقط. لا أستطيع إخبارك بشيء سوى أننا سنطلق سراحك سالمة بعد يومين.

ـ يومين! ولماذا ليس الآن؟ وكيف أعرف أنك تقول الحقيقة؟ كيف أعرف...؟

وهز كتفيه، ثم استدار ليساعد المرأة على الخروج. ثم أغلق الباب وأقفله بالمفتاح.

بعد هذه الحادثة لم تعد المرأة، وجلب الولد الطعام لسيلينا. مما

www.elromancia.com

منحها الوقت اللازم لتستعيد رباطة جأشها من خيبة الأمل التي أصابتها وتهدأ قليلاً، ومنحها أيضاً الوقت الكافي لتفكر.

وانتظرت إلى أن وضع الصينية، وهو يراقبها بحذر طوال الوقت. ثم ابتسمت له وقالت بهدوء:

- أنا آسفة لأنني آذيتها، ولكن كان عليّ أن أفعل. أرجوك ابقى معي لنتحدث قليلاً.

- ليس هناك شيء نتحدث عنه.

- بل هناك... هل هي أمك؟

وجلست على جلد الماعز الذي كان الأثاث الوحيد في سجنها ومدت يدها إلى قطعة خبز مدهونة بنوع من الجبن. الجبنة كانت فاسدة، ولكن سيلينا لم تعد الآن متطلبة.

- أجل... كيف عرفتي؟

- لقد خمنت... أنت تشبهها في ملامح الوجه.

ووقف الولد قرب الباب، يبدو عليه القلق، ولكن بفضول على الرغم منه. كان عمره حوالي الخمسة عشر سنة، ولم يبدو عليه أنه مجرم. وقالت له:

- هل يدفعون لك جيداً؟

- أمي بحاجة للمال.

- ألسنا جميعاً بحاجة للمال؟ ألم يدفعوا لك بعد؟

- سيدفعون.

- لن يدفعوا.

- أنت تكذبين.

- أقسم بالله. أؤكد لك أنني لست كاذبة.

- سوف يدفعون.. مئتي درهم.

- انتظر وسترى.

ونظر إليها والغطرسة في عينيه، ثم تركها وخرج، وصفق الباب وراءه. وللمرة الأولى رأت بارقة أمل خفيفة. ولم يعد قبل غروب الشمس. ولم تضع سيلينا وقتها.

- أنتم بحاجة للمال كثيراً... أليس كذلك؟

- أخي الصغير سيعمى، إنه مصاب بالتراخوما. وبالمال أستطيع أن ادفع تكاليف العلاج لشفاء عينيه.

وقالت له بتأثر، وشفقة حقيقية في صوتها.

- أنا آسفة.. ما اسمه؟

- وما يهمك؟

- لا احب أن افكر بولد صغير سيعمى عندما تكون هناك أدوية ممكن أن تشفيه. إنه صغير، أليس كذلك؟

- أجل إنه صغير، عدة سنوات أصغر مني.

- انكليزيتك جيدة... ما اسمك؟

- مصطفى.

- اسمي سيلينا.

- لا هذا ليس اسمك... أنت تكذبين مجدداً.

فابتسمت وهزت رأسها.

- أنا لا أكذب يا مصطفى. أنتم تظنون أن اسمي ماريون، ولكن هذا ليس صحيحاً. ماريون لا تزال سالمة في بيت التعاويذ في قادر.

ونظر إليها الولد بحدة، فهزت رأسها قائلة:

- هل سمعت باسم رافايل بومان؟

- ربما سمعت به.

- إن ماريون في رعايته، ولن يسمح لأحد بأن يأخذها والآن فات

الوقت. بإمكانك أن تحصل على الكثير من المال يا مصطفى، أكثر مما تحلم به أنت أو أنا. ما يكفي لشفاء آلاف الأطفال مثل أخيك من التراخوما. ولكنك لن تحصل على شيء منه.

ـ أنا لا أصدقك.

ـ لا... ولماذا تصدقني؟ ليس عندك ضمانة بأنني أقول الحقيقة، ليس أكثر من ضمانتك بأن جوليان بومان وشركاؤه يقولون الحقيقة. قد يفون بوعدهم، ولكنني أشك في هذا. لأنهم لن يحصلوا على شيء من المال الذي يسعون وراءه.

وراقبته عن كثب، تقرأ ظلال الشك في عينيه، ويداه القلقتان تقلبان حافة القميص الواسع الذي يرتديه. وشدّ على فمه ثم فتحه دلالة على عدم الثقة، وأبعد نظره عنها، ثم عاد ينظر إليها. وبقيت صامتة، تلعب بالسلسلة الذهبية في عنقها، وأخرجت التعويذة من تحت قبة البيجاما، ووزنتها في يدها للحظة ثم خلعت السلسلة من فوق رأسها.

ـ مصطفى...

وحدقت عيناه بالمعدن الثمين في يدها، ولكنه لم يتحرك.

ـ هذه سوف تثبت هويتي للمسيو رافايل بومان. إذا أخذتها له سوف يعطيك المال الذي سيشفي عينا شقيقك.

ـ سوف يسلمني للبوليس.

هذا هو الأكثر احتمالا، وهي تعرف هذا جيداً. ولكنها قالت ببطء:

ـ إذا ساعدتني على الهرب، سأعطيك ما يكفي من المال لشراء الدواء. إنه لا يكلف كثيراً، ليس كما تعتقد.

وبقي صامتاً، ونظرته تتحرك من وجهها إلى المعدن اللامع الذي تحمله. وأحسّت سيلينا بالقنوط يعاودها، لا فائدة من الأمر، لن

تستطيع رشوته. ثم تحرك بسرعة وجلس إلى جانبها. واختطف التعويذة، وحدّق بها، ثم رفع عينيه والذهول يلمع فيهما. وقالت:

ـ هذه لوحدها تساوي الكثير الكثير من الدراهم... ولكن... لا ارغب في الافتراق عنها.

ـ هل هي لك؟

وهزت رأسها بالإيجاب.

ـ ومن أعطاها لك؟

ـ رافايل بومان.

كان ينظر إلى شكلها ويمسح سطحها الناعم. ووقف فجأة وأعاد السلسلة فوق رأسها.

ـ يجب أن لا تفترقي عنها..

ثم أخذ يتكلم بالعربية ويهز رأسه، ونظرت إليه بحيرة.. وتراجع قليلاً.

ـ لا.. لن آخذها.. سأرسل لك أمي الآن. ولا تؤذيها، يا آنستي الإنكليزية.

ـ لا لن أؤذيها.

وعندما ذهب، غسلت وجهها ويديها في وعاء الماء محاولة ان تريح نفسها لقضاء تلك الليلة.. ولم تظهر المرأة، ولا مصطفى، واستلقت سيلينا فوق جلود الماعز، وحاولت أن لا تفكر بالعقارب.

في اليوم التالي كانت روحها المعنوية قد انهارت، وأحسّت بالضعف وفتور الهمة. وأتت لها المرأة بالطعام عند شروق الشمس، وتركتها دون كلمة، واستسلمت سيلينا لليأس. هذا هو يومها الثالث في هذا المكان المرعب. وبدأ تعب الجسد ومرض الروح يقرّبها من التحطم النفسي.

مكتبة الرومانسية

إلى متى؟ لا بد أن جوليان قد عرف الآن أن مؤامرته فشلت. لنفترض أنه رجع إلى فرنسا؟ لنفترض أن لا أحد يعرف أنها هنا؟ حتى ولو أطلق مصطفى سراحها، فكيف ستعود؟ ليس لديها مال. وجواز سفرها وثيابها في قادر. ولا تملك هنا شيئاً، ولا حتى ما يثبت هويتها. وهي تشك كثيراً في أنها لا زالت في أرض المغرب. شعرها أصبح قذراً ومبعثراً. وبيجامتها الرقيقة أصبحت قذرة. وشعرت بأنها ستموت.

بعد ظهر ذلك اليوم.. وفي ظل الحرارة وانقطاع الهواء، بكت، وبينما قضبان النافذة تتطاول ظلالها في الزنزانة، غطت في النوم من الإرهاق، ولأنها لم تعد تستطيع أن تبكي...

وزحف الظل الأسود مبتعداً بينما كانت الشمس تشرق على وجه سيلينا الصغير المتعب، وكونت الشمس هالة حول رأسها الأحمر. وسمعت جلبة، وصوت أقدام غاضبة في الخارج وفتح الباب بقوة.

ودخل رافايل بومان... وتوقف. نظرته المرعوبة جالت في الزنزانة وشهق بصوت مرتفع..

- يا إلهي! ماذا فعلوا بك!

وأسرع إلى الأمام وهبط على ركبتيه أمامها، وتراجع مصطفى الخائف نحو المدخل. وأجفلت سيلينا لسماع نداء اسمها الملحّ، وتأوهت بضعف، ومدّت يديها دون أن ترى نحو الصوت. لا بد أنها تحلم، ولكن بما أنه أجمل حلم لم ترد أن تستيقظ لتواجه الواقع. ليس في وقت تضمها فيه ذراعا رافايل إلى صدره. ليس في وقت يضع فيه رأسها على كتفه، ويلمس أثر الدموع تحت عينيها، ويحملها دون جهد بين ذراعيه.

وهمست بكلام مشوش، ودفنت وجهها في صدره، وأطلقت تنهيدة

مرتجفة كبيرة.. إنها في زمن الحلم بين ذراعيه... وبين ذراعيه هي آمنة من كل العالم...

* * *

- سيلينا.. الا تحاولين أن تستيقظي! أنت آمنة الآن.

وارتعدت، واتسعت عيناها وهي تحاول أن تصدق أن هذا كله حقيقة. كانت مستلقية على المقعد الامامي للمرسيدس، ورافايل ينظر بقلق إلى وجهها.

وتراجع قليلاً إلى الظلام المضاء بالنجوم في الخارج، واستعادت وعيها الكامل، ومدّت يديها إليه بذعر صارخة.

- لا تفعل... لا تفعل..

- لا أفعل ماذا؟

- لا تتركني.

- ولكنني لن أذهب وأتركك... سأحضر لك شيئاً أغطيك به.

- اوه... لا أستطيع التصديق أن كل شيء قد انتهى...

وأحاطت ذراعيها العاريتين بيديها، وهي تتذكر حاجتها للثياب وبرد ليالي الصحراء.

- أجل.. لقد انتهى كل شيء. وأنت آمنة الآن.

كان في صوته رنة لم تسمعها من قبل، رنة جعلتها تدفأ، وجعلت قلبها يتألم في نفس الوقت. وعاد إليها يحمل أغطية بيضاء على ذراعه، ووضعها فوقها بعد أن مال عليها من باب السيارة المفتوح.

- لقد أرعبوك كثيراً.. أليس كذلك؟ ولكن كل شيء قد انتهى الآن، وكأنه حلم مرعب. والآن اجلسي.. لا.. لا تحاولي الخروج.. أنت كغزالة صغيرة متجمدة من البرد ضاعت لوقت طويل طويل.

ونفض أطراف الجلابية البيضاء السميكة ووضعها فوق أكتافها، ولفها من حولها بحنان وكأنها مخلوق صغير. وفي المساحة الصغيرة للسيارة كان قريباً منها جداً. اليدان الدافئتان القويتان تحدثان فيها تأثيراً سحرياً لم ترغب في ان تخسره. أطراف الثوب التفت حولها، فأغرقت ذقنها في نعومتها. واشتمت فيها رائحة الدفء والنظافة، وعطر رجالي خفيف ينبعث من قماشها. وطوت قدميها تحت الثوب واسترخت، وتركت الراحة تنساب اليها بما يشبه الألم. كل هذا بدا جزء من حلم، لم ترد أن ينتهي.. أبداً...

وأغلق الباب عليها واستدار إلى مقعد القيادة. ودار المحرك، وانطلقت السيارة. كان هذا يشتت الحلم عنها، ومع ذلك حاولت أن تراقب السماء المليئة بالنجوم من فوقها وتتخيل أن الحلم مستمر ومستمر إلى نهاية السواقي الفضية التي كان النور الأمامي للسيارة يحدثها عبر الظلام. وقالت له بصوت هامس:

- ماريون.. هل هي بخير؟

- إنها سالمة تماماً. ومحروسة جيداً. ولا شيء يثير القلق الآن.

- أرجو هذا.. لقد كان الأمر مريعاً.. إنهم...

- لا تتكلمي عن الموضوع الآن. أعلم أن هناك العديد من الاسئلة والأجوبة، ولكن سيكون أمامنا الكثير من الوقت لهذا عندما تستعيدين نشاطك.

وسرقت نظرة إلى ملامح وجهه، ورأت أنها قد عادت إلى مظهرها المهيب الحاد الذي تعرفه أكثر من أي شيء. وتنهدت، غير قادرة على أن تخالف إرادته، ولكن هناك شيء يجب أن تعرفه.. لتكمل الحلم... فسألته:

- هل نحن ذاهبان إلى قادر؟

- ليس على الفور. إنها رحلة بعيدة لنصل إليها الليلة.

ودرست كلامه للحظات، متذكرة الساعات الطويلة التي أمضتها دون راحة في اللاندروفر القديمة، وبدت عليها خيبة الأمل وقالت متنهدة:

- لا يهمني كم ستأخذ من وقت.

- هل أنت تواقة كثيراً لرؤية قادر من جديد؟

- قادر ستكون كالجنة بعدما مرّ بي... أين نحن؟ هل تعرف؟

- إننا داخل الجزائر بحوالي خمسين ميلاً.

ولم تقل شيئاً فقد تأكدت شكوكها بأن مختطفيها قد أخرجوها من المغرب. وبعد صمت قصير قالت:

- أين ستذهب الآن؟

- سآخذك عند بعض الأصدقاء. وسنتابع رحلتنا في الغد. وفي نفس هذا الوقت من الغد ستكونين في قادر. وفي نفس الوقت من الأسبوع القادم ستكونين في بلادك.. هل يجعلك مثل هذا التفكير تشعرين بالسعادة؟

ولم ترد، وأغلقت عينيها. فالفكرة لم تجلب لها السعادة، ولم تجرؤ أن تسأل قلبها عن السر، فهذا لن يجلب السعادة أيضاً.

ومرت السيارة بعد وقت تحت قنطرة في جدار وخرجت إلى شارع ضيق وسط مجموعة منازل. ولم يبلغها رافايل بأية معلومات واستنتجت أنهما وصلا إلى حيث يقصدان. واستعدت للتحرك، ولكن، لدهشتها، أسرعت السيارة ثانية، وانتهى منظر سقوف المنازل وبرز أمامها منظر الريف ثانية...

ومضت ساعة تقريباً قبل أن يوقف رافايل السيارة أخيراً. رائحة رطوبة ليل الصحراء والرمال المتحركة تحت الأقدام، أصاب سيلينا

بالدوار وهي تتعثر لتنزل من السيارة وتقف، وضمت الروب من حولها، وحدقت بأشكال الخيم السوداء، وشعرت بالدهشة. وأدركت أن هذا مخيم...

وتحركت إلى الأمام، وتعثرت وكادت أن تقع بعد أن داست على طرف الجلابية الطويلة جداً. وأمسك بها على الفور، وللحظة ظنت أنه سيأخذها بين ذراعيه ويحملها.. وجذبت الثوب بقوة وابتعدت عنه.

- من أين نذهب؟

- من هنا.. وانتبهي حتى لا تقعي ثانية.

كان على مدخل الخيمة غطاء كبير، وأزاحه رافايل وأشار إليها بالدخول ثم قال «انتظري هنا».

وأخرج قنديلاً صغيراً من جيبه، وراقبت نوره الرفيع القوي وهو يحركه مبتعداً.. هل هذا هو المخيم نفسه الذي زاره في ذلك اليوم الذي لا ينسى عندما كانت مختبئة في السيارة؟ لا.. لا يمكن، لا بد أن ذلك المخيم بعيد عدة أميال. ولكن هؤلاء الناس ينتقلون من مكان الى مكان طوال الوقت، متتبعين طرق التجارة القديمة عبر الصحراء.. وسمعت أصواتاً وشاهدت إضاءة القناديل بسرعة، وعاد رافايل مع رجل طويل ملتحي في ثوب أزرق.

وقدمها باختصار إلى الشيخ ابراهيم ابن اليوسف، وأحنى الرجل الكبير رأسه بوقار، مرحباً بها.

- الشيخ ابراهيم كلفّ امرأة لخدمتك... سوف تأخذك إلى جناحك لقضاء الليل ولتتأكد من حصولك على كل ما تريدين.

- شكراً لك..

وشعرت فجأة أنها صغيرة وضائعة وغير واثقة من نفسها في هذا

المحيط الغريب. وأقبلت المرأة بسرعة، وبعد ذلك حدث لسيلينا ما تتذكره تماماً في المناسبة السابقة.

اعطيت بعض المرطبات، وشاي معطر حلو. وبعض الكباب، وبعض الحلوى من اللوز والعسل، وبعض التمر الأصفر اللماع. وبعد أن أكلت، أحضر لها ماء للاستحمام والزيوت لفرك جسمها، كذلك ثياب لترتديها، سروال من القطن الناعم وبلوزة واسعة وفوقه القفطان. ولكن سيلينا تمسكت بالجلابية البيضاء، وأخذتها النساء إلى شقتهن.

وهناك انسحبن، تاركات لها قنديلاً وضعته على طاولة منخفضة قرب كومة من الوسائد ستنام عليها. ولكن النوم الآن هو آخر شيء قد ترغب فيه سيلينا. وجلست على بطانية من صوف الجمال متأملة الظلال التي يسببها القنديل من حولها. انقسام الزمن إلى نهار وليل، وتناسب الأعمال العادية بين هذين الوقتين لم يعد يبدو مهماً لها. الساعة قد تكون الآن ما بين الثامنة والساعات الصغيرة الأولى للفجر، وهي لم تفكر بأن تسأل رافايل عن الساعة، ولكن بحكم حقيقة أن المخيم قد هدأ، لا بد أن الساعة متأخرة. ووقفت، وضمت الثوب جيداً حتى لا تتعثر به، ومشت نحو فتحة في جدار الخيمة.

الليل كان ساكناً، والقمر يزحف على مسافة قريبة من الأرض، ولم يبدو لها أي مخلوق. وترددت، ثم عادت إلى داخل الخيمة، لتعود بوسادة وضعتها أمام مدخل الخيمة، فلم يكن لديها رغبة في أن تخطىء مكانها في الظلمة. وعندما أنهت اهتمامها بهذه المخاطرة، سارت بهدوء مارة أمام الظلال الكبيرة للخيم إلى أن وصلت إلى حدود المخيم.. وأجفلها صوت قريب، ثم ضحكت بعد أن أدركت أن الأشكال التي أمامها ليست سوى جمال نائمة. وعلى مسافة أبعد كانت الماعز مربوطة، وتابعت طريقها وفي نيتها أن تكمل دورتها حول

المخيم. وكانت في منتصف طريقها عندما برز ظل من بين الظلال ليواجهها، وكان رافايل..

ـ لماذا أنت هنا، ألست مرتاحة في خيمتك؟

ـ رغبت في بعض الهواء النقي، وأن أتمشى قليلاً.

ـ إذا كنت ترغبين في السير يجب أن يكون عندك هدف. سوف نذهب إلى الواحة. بما أن ليس هناك من هدف آخر.

ـ وأين هي الواحة؟

ـ هذه هي الواحة، ولكن الجزء الذي يظنه الزوار أنه الواحة هو من هنا، في الجانب الآخر من المخيم.

وتبعت خطواته طائعة، متسلقة تلة من الرمل تحيط بالمنطقة كهلال القمر، إلى أن وصلا إلى وادٍ صغيرٍ حيث تبدأ الخضرة وأشجار النخيل تحدّ جوانب حفرة الماء.

ـ لا يبدو شيء كثير لرؤيته في هذا الوقت، ولكنه أجمل منظر أمام الراحل في الصحراء.

ـ أجل.. أستطيع تصور هذا.. رافايل، كيف وجدتني؟

ـ من خلال التعويذة، لقد تعرف عليها مصطفى وجاء يسعى إليّ.

ـ لقد.. حاولت رشوته كي يتركني أذهب.

وعبست. متسائلة عما إذا كانت قد تخيلت بعض التحفظ في كلامه، وأصبحت متأكدة أن التعويذة لها اهمية ذات مغزى لا يزال مجهولاً لها. وقالت ببطء:

ـ لقد بدت وكأنها أذهلته، وكأنها تعني له شيئاً. لقد رفض أن يأخذها. وأنا...

وتوقفت عن الكلام، وقد أدركت انها قامت باعتراف لم تكن تنوي قوله. ونظرت إليه، وأصبحت قلقة:

ـ أنا.. أنا لم أرد أن اعطيها له.. حاول أن تفهمني يا رافايل. لم أرد أن أفترق عنها، ولكنني كنت يائسة، وكانت الشيء الوحيد الذي معي وله قيمة.

ـ أفهم تماماً... كان الأمر طبيعياً نظراً لتلك الظروف، وأنا سعيد لعدم اضطرارك للافتراق عنها.

واستدار عائداً باتجاه المخيم. وببطء لحقت بخطواته، وارتفعت يدها دون إرادة إلى التعويذة في عنقها وسألته:

ـ هل ترغب في استعادتها؟

ـ وهل ترغبين في إعادتها؟

ـ لا.. الأمر ليس هكذا.. ولكنني أعلم أن لها معنى خاص، وأن هذا له علاقة، بطريقة ما، بإنقاذك لي، ولكن إذا كنت لا تريد تفسير هذا، فلا يهم. ولكنني أعلم أن لها قيمة عاطفية لديك ولا أرغب في ان آخذها منك بسبب.. تلك السخافة في تلك الليلة.

ـ سخافة؟ قيمة عاطفية؟

ـ حسناً، لم أعني هذا بالضبط.. أنا...

ـ أظن من الأفضل أن تجلسي يا سيلينا وسأقص عليك القصة. إنها قصة طويلة، والطريقة التي يعيد التاريخ بها نفسه سوف تروق لعقلك الإنكليزي الرومانسي.

وجلست على الرمال وأراح ذراعه على ركبته المطوية:

ـ لا بد أنك لاحظتي أن بعض نساء البربر يحملن علامة وشم على ذقونهن؟ إنه رمز للقبيلة. والتعويذة هي على شكل واحد من هذه الرموز. وتعرّف مصطفى عليها فوراً. إنها رمز تستخدمه قبيلته. لذلك الولاء القبلي غلب فوراً على كل المشاعر الأخرى للكسب الشخصي. وهو...

ـ ولكن كان عنده سبب. . أراد أن. . .

ـ أجل، لقد أخبرني عن أخيه الطفل وعن وعدك له. وهذه مسألة سهلة، كل ما يمكن عمله للطفل سنقوم به. ألست بردانة؟

ـ لو أنك تعلم كيف تبدو الجنة في رؤية النجوم والشعور بالحرية من جديد بعد تلك الزنزانة الحجرية البشعة.

ـ وهل تشعرين بالحرية الآن؟

ـ بشكل رائع.

ـ ولم تعد قادر تبدو لك مثل السجن؟

ـ سجن؟ ولكنه مختلف الآن. أليس كذلك؟ أعني. . .

ـ ولكنك لم تشعري هكذا خلال الأيام الأولى في قادر. أتساءل ما الذي جعل هذا التغيير يجري في قلبك. أيكون هذا سببه أنك عرفت بالتجربة المريرة أنني لم أتصرف بدافع من تصلب أعمى؟ أم أن العاطفة الإنكليزية فيك ربحت وجعلتك تعطفين على ابنة عمتي؟ أم أن هناك سبب آخر؟

ـ بالطبع، ليس هناك سبب آخر. كنت تخبرني عن قصة التعويذة فما الذي جعلك تسخر من عواطفي الانكليزية؟ أمك كانت انكليزية، أليس كذلك؟

ـ وكيف عرفتي هذا؟

ـ لقد أخبرتني ماريون.

ـ فهمت. . إذاً تعرفين القصة؟

ـ أجل.

ووقفت على قدميها، الصمت بدا لها يبعث على القشعريرة. ومسحت الرمال العالقة بثوبها.

ـ أنا آسفة يا رافايل.

ـ لا حاجة للأسف. . . هؤلاء هم قومي، وأنا منهم. وأنا فخور بروابط الدم والميراث.

ـ البربر؟

ـ ألم تخبرك ماريون بهذا الجزء من القصة؟

وحدّقت في الوجه الشبيه بوجه الصقر، وعيناها متسعتان من الذهول.

ـ لقد أخبرتني فقط أن أمك هجرتك عندما كنت طفلاً.

ـ التي أفكر بها كأمي هي زوجة جدي المحبوبة. كانت فتاة من دم بربري صافٍ يا سيلينا. وهذه هي القصة وراء تلك التعويذة.

وأصبح بعيداً عنها الآن، بينهما هوة لا تستطيع أن تجتازها وسار هابطاً التل باتجاه المخيم.

☆ ☆ ☆

www.elromancia.com

٨ ـ لا تخافي الصحراء

كان الضباب الرقيق يغطي الصحراء المصبوغة بلون الدم عند الفجر، عندما خرج رافايل بسيارته من المخيم. كان هناك شعور مخيف يسود تلك القفار الغريبة، نوع من الكآبة يماثل مزاج سيليا وهي تستقر في مقعدها للرحلة الطويلة.

رافايل كان صامتاً، وقد عاد إلى تلك القوقعة من الثقة بالنفس حيث لا تستطيع الوصول إليه. ما عدا تحية مختصرة، وبعض المعلومات عن أنهما لن يصلا إلى قادر قبل المساء، كان بالكاد يعترف بوجودها ذلك الصباح، ولم تستطع منع شعورها بالألم.

وتنهدت والسيارة تزيد من سرعتها، وتساءلت عما إذا كانت قد تخيلت رقته في اليوم السابق عندما حررها وتولى المحافظة عليها، ولف الثوب من حولها... وعادت إلى الحلم، محاولة التقاط تلك اللحظات عندما اقتحم الزنزانة ووضع رأسها بين ذراعيه، لقد حوّل وقتها الكابوس إلى جنة، ولكن.. الآن...

ظلال هذه الأفكار، سبّبت لها توتراً قاسياً حجبت زرقة عينيها،

الذكرى لن تماثل الواقع، ليس أكثر مما قد تفعله الذكريات الأخرى، وقلب المغفل فقط يحاول أن يجعلها هكذا. ومع ذلك، وبالنسبة للفترة القصيرة لمعرفتها به، يبدو أن لها ذكريات عديدة جداً عن ذراعيّ رافايل...

ونظرت إلى الأمام، ثم قالت:

ـ هل ستقوم بالترتيبات لأخذي إلى كازابلانكا بأسرع وقت ممكن؟

ـ طبعاً. بأسرع وقت ترغبين به. ولكن يجب أن تستعيدي عافيتك أولاً من المحنة التي مرت بك قبل أن تقومي بتلك الرحلة.

ـ لقد استعدت عافيتي الآن تماماً.

ولم يرد عليها. ونظرت إليه، ولاحظت تركيزاً عابساً على وجهه. وبدا لها أنه يفتش عن علامة ما في الطريق، وشكرت ربها بأنها ليست من تقود السيارة، فبالنسبة لعينيها غير الخبيرتين كان يسافران في قفر لا معالم له من الرمال عبر الصحراء. ومع ذلك لم يتبادر إلى ذهنها أبداً أن تشك بمقدرة رافايل أن يوصلهما بسلام إلى مقصدهما.

بعد فترة قصيرة، انجلت عن وجهه التقطيبة، وقال فجأة:

ـ انت تتحملين كل هذا بهدوء ملحوظ.

ـ لأنني مؤمنة أنك تعرف أين تذهب.

ـ لم أقصد هذا، مع أنني مسرور من ثقتك بي. كنت أشير إلى التجربة القاسية التي عانيتيها.

ـ أوه.. تلك إذاً.

ـ كنت أتوقع منك أن تطالبي بالانتقام، وأن تنفجري بالغضب على الأقدار للمهانة والصدمة الحقيقية التي مرت بك.

ـ لقد انتهى الأمر الآن. ولم يعد شيء يهم.

ـ أوه، ولكن الأمر يهم.

ودهشت للعنف الذي ظهر في صوته. ثم تذكرت أنه كان سهلاً أن يحدث هذا لابنة عمته.

ـ كان أمامي ثلاثة أيام هناك للغضب والتحسر على قدري. ولكنني لا أشعر بشيء الآن ما عدا الشكر لله لانتهاء الأمر.

ـ ولكن الأمر لم ينتهِ بعد.. فهناك قضية محمد.. ولكنك لم تعرفي بعد بأمره. لقد هاجمه مختطفوك وأصابوه بجراح قبل اختطافك.

ـ وهل إصابته بليغة؟

ـ لحسن الحظ. لا. لقد أرسلته إلى كازابلانكا حيث يتماثل للشفاء هناك.

ـ ومن يعتني الآن بماريون؟

ـ ماريون عادت إلى كازابلانكا أيضاً.

ـ وهل أرسلتها وحدها؟

ـ لا، أرسلتها مع المحامي. وهي تقيم مع سوزان. إنها تعتني بها جيداً. ولكن الخطر قد زال الآن. ولم أستطع مغادرة قادر قبل أن أجدك. إذا كان هذا سيعزّيك، فإن الجهود للعثور على هؤلاء الرجال مستمرة، كي تتم محاكمة من حرّضهم.

وشعرت فجأة بالكآبة. فلم يعد أي من هذا يهمها الآن. فقد بدأت النهاية. وقريباً ستكون في طريقها عائدة إلى انكلترا إلى موطنها. وسوف تبدأ عندها في البحث عن وظيفة جديدة، وأمها سوف تسأل آلاف الاسئلة، والقليل منها ستجرؤ على أن تجيب عليه بالحقيقة الكاملة. وبدا كل ذلك بعيداً جداً عن سماء الصحراء الحارة هذه، ومع ذلك، وبعد وقت قصير، سوف تنظر إلى هذه الأحداث وستبدو لها أيضاً بعيدة، وغير واقعية بشكل غريب.

ـ كم الساعة الآن يا رافايل؟

ـ هناك ساعة على رف السيارة أمامك. أم أنها توقفت؟ سنصل «تل عارف» بعد ساعة. إنه مكان صغير للتزود بالماء. وسنتناول الغداء هناك، ونبقى ثلاث أو أربع ساعات حتى تخف حدة شمس الظهيرة.

ـ ثلاث أو أربع ساعات!

ـ علينا أن نقطع بحر الرمال بعد ذلك. ولن تتحملي الحرارة، عدا عن تأثيرها على المحرك.

وخفق قلبها. كانت تعرف ما يكفي عن الصحراء وعن رافايل، لتكون متأكدة أن أي طريق سيسلكها ستكون الأفضل. ولكن التفكير بعدة ساعات برفقته جعلها تخاف.. ولكن هذا أهون الشرين! وكان الحر قد بدأ يصبح لا يطاق وعيناها تؤلمانها من وهج الشمس. وربما سيكون هناك بعض الظلال في الواحة، وبعض الماء البارد... الأفق كان يبدو كالبحيرة. موجات لامعة بلون الذهب تحت سماء وكأنها البرونز المحترق... وكان سهلاً أن تفهم كيف أن المسافرين في الصحراء يسرعون نحو ذلك السراب. فالنظر يتلاعب بخداع غريب. ولكن عيناها أبصرتا جسماً طويلاً ينهض عن الرمال على مسافة قريبة من مقدمة السيارة.

ورفرفت عينيها... لا أحد ممكن أن يسير في الصحراء على قدميه، وخاصة لوحده. ولكن ظهر طيف آخر ينهض متثاقلاً.. لقد كان... وقبل أن تتكلم توقفت السيارة فجأة.

ـ اخرجي.. لا تسألي أي سؤال.

ـ ولكن..

ـ افعلي ما أقوله!

كان قد خرج من السيارة. وأسكت احتجاجاتها، هبة الريح

الساخنة التي دخلت السيارة. وسمعت صندوق السيارة يفتح، وعويل الريح المجنون. وبينما كانت تمد يدها إلى مقبض الباب كانت السماء تظلم. العاصفة قادمة. ونفضت الأطياف المترنحة الغبار، ولكن لماذا بحق السماء عليهما أن يخرجا من السيارة؟

ولم يخطر لها أن لا تطيع. وأخذت تقاوم الريح، وأغلق رافايل صندوق السيارة، واستدار إليها حاملاً لفافة بيضاء على ذراعيه.

ـ أحضري الماء والجلابية.. بسرعة!

وعادت إلى السيارة ومدت يدها إلى المقعد الخلفي. لقد حدث كل شيء بسرعة. في لحظة لم يكن هناك شيء، ثم ذلك الصوت الهادر في الهواء، وانفجار غضب الصحراء من حولهما، يملأ عينيها بالغبار ويلسعها مثل مطر من الأبر الحادة على وجهها.

وتلاطم الثوب بجنون عندما خرجت من السيارة وأمسكت بأطرافه تبعدها عن وجهها، وهي تناضل لاغلاق باب السيارة، وكان رافايل يحاول أن يثبت الغطاء الذي وضعه على مقدمة السيارة. واستدارت. لتساعده، وشعرت بمقاومة الريح. ولكن طرف الثوب علق بالباب. ووقف رافايل، وقبل أن تستطيع أن تفعل شيئاً، فتح الباب فجأة بقوة الريح، وصدمه على صدغه.

وترنح ووضع يده على رأسه، واتكأ على جانب السيارة. صرخة التحذير التي اطلقتها ذهبت مع الريح. وأسرعت نحوه، وأمسكت بكتفيه، فوقف مترنحاً، وهو يهز رأسه.. وقال «لا تهتمي» وأمسك بذراعها، يحثها للتقدم إلى الأمام. «اسرعي!».

كان يدفعها، يجرها، راكضاً من غير ثبات. وتمسكت بقوة بأوعية الماء والثوب. مديرة ظهرها للريح التي تهدّد بأن ترميها على وجهها. وانزلقت أول فردة من حذاءها، ثم الأخرى، ولم تلاحظ هذا وهي

تركض باتجاه المرتفع على شكل الهلال الذي كان رافايل يسعى إليه.

ثم وقعا أرضاً. وحدثت استراحة هادئة بشكل لا يصدق، ولكنها كانت مؤقتة، وأسرع رافايل إلى كهف وحاول أن يغطيه بالجلابية.

ـ استلقي أرضاً.. بسرعة وغطي نفسك.

وجذبها إلى الأرض ورمى بنفسه إلى جانبها، وهو يجذب أطراف الثوب ليغطيها وصاحت بذعر:

ـ سوف ندفن..! سوف...

ـ ابقي رأسك منخفضا واستفيدي قدر استطاعتك من الغطاء.

ـ ولكن لماذا لا نبقى في السيارة؟ بدلاً من...

ـ إنها «العارفة» الريح الجنوبية التي نخاف منها. ومن الممكن أن تدفن السيارة في الرمال ونحن فيها. وضغط الرمال قد يمنعنا من فتح الأبواب. عدا عن خطر الأختناق. نحن هنا آمنين أكثر.

واستسلمت، وبدأ تنفسها يعود إلى طبيعته، ثم بدأت تحس بإثارة جديدة لا علاقة لها بالعاصفة، فتلك اللحظات اللاهثة من غضب العاصفة الرملية، أنستها كل شيء آخر، ولكن الآن، وقد أصبحا في هذه الجنة الصغيرة، أصبحت تشعر تماماً بقرب رافايل منها، ذراعه كانت لا تزال تحيط بجسدها للحماية فقالت متلعثمة:

ـ آنية الماء.. هل هي...؟

ـ إنها هنا.. هل تريدين أن تشربي؟

ـ لا... كم ستبقى العاصفة؟

ـ من يعلم! ساعات ربما.

ـ أيعني هذا أن علينا...؟

ـ أخشى هذا. حاولي أن لا تخافي. فالناس هنا ينجون عادة من «العارفة».

www.elromancia.com

- ولكن ماذا لو دفنت السيارة، ولم.. لم نستطع أن نجدها؟
- لا تفكري بهذا الآن.

وصمتت، محاولة إبعاد الأفكار المرعبة عن ذهنها. كانت الشمس قد اختفت واللون الغريب يلف كل شيء. بدا هذا وكأن فناناً قد أخذ فرشاته ولوّن الأرض والسماء بلون واحد من الحرارة واللون البرتقالي المحروق. وكانت الرمال تغزو كل الثياب وتكسو البشرة بذلك اللون الأصفر، تلتصق به وتسبب الحكاك، والريح تأتي بموجات من الحرارة إلى الجسد الذي احترق بشكل غير محتمل. وفجأة أحست بتنفسها يعلق في حنجرتها. فقد ذكّرتها حرارة العاصفة بلمسة رافايل على كتفها، ولم تعد تستطيع أن تتحملها... وتلوت بقلق.. وأبعدت شعرها المتلبد بالرمال عن وجهها، وهمست:

- أرجوك، يجب أن أشرب.

وتحرك على الفور، وفتح الوعاء وقدمه لها:

- احذري.. لا تشربي أكثر من حاجتك.. ربما سنحتاج الماء لمدة طويلة.

وحدّقت به، محاولة السيطرة على اضطرابها، ثم شربت قليلاً وأعادته له. وهو يأخذه ويعيد الغطاء عليه، رأت الكدمة السوداء الكبيرة على وجهه الأسمر، ومدت يدها إليها فوراً.

- رافايل.. رأسك! هناك كدمة فظيعة فيه، إنها تتورم. دعني أغسلها.. إنها تبدو...

- هل أنت مجنونة؟ أتضيعين الماء الثمين على كدمة! سيلينا، ألا تعلمين...

- قليلاً فقط لتبريدها.. لا بد أنها تؤلمك كثيراً.

- إنها لا تؤلمني. لا تنظري إليّ هكذا يا سيلينا.

- وكيف أنظر إليك؟

- بهذا التعبير الذي رأيته من قبل. انها النظرة التي كنت تنظرين بها إلى ذلك الحيوان، مليئة بالشفقة والعاطفة التي لم تكن في محلها.

- أستطيع أن أرى أن الشفقة في غير محلها. وكيف أنظر اليك؟ وكأنني غير مكترثة بك؟

- بأية طريقة تشائين. طالما تتذكرين أنني رجل أولاً ولست بحاجة إلى عطفك.

- أوه.. إنك لا تحتمل! أنا آسفة على كل ما قلته. وأنا لا أنظر إليك بهذه الطريقة.. أنا...

واندفعت اليهما موجة من الغبار، وأدارت وجهها، وهي مسرورة تقريباً من الألم الذي سببته كي تستطيع الاختباء من غضبه. ومسحت عينيها، ثم دفنت وجهها في ذراعيها. وساورها غضب كبير ضد قدرها، وأحست برغبة طفولية لأن تركل وتضرب بقبضتيها احتجاجاً على هذا القدر وعلى الظلم الذي ألحقه بها. لماذا؟ لم تطلب أن يحضرها أحداً إلى هنا. ولم ترد أن تأتي إلى قادر. رافايل بومان هو من أتى بها. كل ما مرت به خلال الأيام القليلة الماضية كان بسببه! لقد حاولت أن تقاومه، واستخدم أكثر الوسائل غير العادلة ضدها، القوة التي لم تستطع مجابهتها واستفاد من ضعفها. وغازلها متعمداً تلك الليلة في الحديقة وجعلها تحس به كحبيب. وها هي الآن.عالقة في عاصفة رملية معه. وكل ما يفعله هو أن يسخر منها.

- لماذا تبكين؟

- لست أبكي..

- بل أنت تبكين.. هل أنت خائفة؟

- لا! أنا.. لقد دخل رمل في عينيّ.

www.elromancia.com

ـ وأنا كذلك.. ولكن هذا لا يجعلني أبكي.

ـ لا.. هذا لن يجعلك تبكي.

وساد صمت قصير، ثم مال نحوها وأعطاها منديلاً:

ـ أعتقد من الأفضل أن تزيلي الرمال من عينيك، إنها تجعل رؤيتك صعبة يا سيلينا.

ـ وهل تفعل؟ هذا شيء لن تفهمه أبداً.

ـ ما هو الذي لن أفهمه أبداً؟

ـ كيف يشعر الناس حقاً. لأنك لا ترى أبعد من نظرتك الضيقة. طريقتك الخاصة، وليس أبداً طريقة غيرك. فقط كيف تظن بالناس. أنت قاسي ومتعجرف ولا تثق بالناس لمشاعر لم تختبرها بنفسك.

ـ تابعي يا سيلينا.. ما هي هذه المشاعر التي لا أمتلكها؟

ـ الشفقة والتعاطف مع آمال الناس الآخرين ومخاوفهم، ومعاناتهم. فالناس يعانون مثل الحيوانات. لقد احتقرتني منذ البداية، أجل لقد فعلت هذا. منذ أول لحظة أشفقت فيها على ذلك الحيوان المسكين في كازابلانكا، لقد عاملتني وكأنني حمقاء وسخيفة، عاطفية! حسناً، أنا عاطفية!

وتنفست نفساً عميقاً واستدارت عنه.

ـ هكذا أنا.. وأنا فخورة بنفسي. ولا أريد أن أكون مختلفة، ولا أهتم بما تظنه بي..

ـ ولكني أظن أنك تهتمين.

ـ لا أهتم. و.. وأتمنى أن يؤلمك رأسك! وأريد أن أخرج من هنا... و...

ـ لا تكوني حمقاء! لا تضيفي الحماقة على كل فشلك.. أنت من قلتيها وليس أنا.

وأمسكت يداه بها، مما تركها سجينة مرتجفة في قبضته.

ـ أنا لم أدعوك بالسخيفة أو الحمقاء. ولكنك مكابرة وعنيدة. ولك أطباع قطة الصحراء البرية.. ألا يمكن لشيء أن يروّض فيك هذه الاستقلالية المخيفة؟

ولف ذراعه حولها بقوة وجذبها نحوه. لمسته كانت حارة كالنار. واستحوذ هذا على انتباهها، ثم قاومته لتحرر نفسها.

ـ لا! هذا كل ما ترغبه من المرأة؟ الخضوع. حسناً، لن تحصل على هذا مني!

وضربت بيديها على صدره، وأمسك بها دون جهد، فأخذت دموع الغضب تتدفق من عينيها.

ـ أرأيتي؟ أنت أنثى كاملة، أيتها الفتاة الإنكليزية الصغيرة العنيدة. أظن أن الرمل دخل إلى قلبك الآن.

ـ تستطيع قول هذا.. على الأقل لدي قلب. ولا أظن أن عندك قلباً.. اتركني!

ـ ليس قبل أن اكون على استعداد. لا.. يا شقرائي الحمراء الشعر. يجب أن أثبت لك أن لديّ قلب. وعليّ أن أثبت شيئاً آخر يبدو أنك عمياء عنه.

ـ لا يجب أن تثبت لي أي شيء لا أعرفه عنك. وتكبّرك يجب أن يصيبك بالخجل. أم أنك فخور بقوتك الجسدية التي تمكنك من أن تتغلب على مقاومة امرأة بالقوة فقط؟

وحدّقت به، مصممة على أن لا تتنازل ولو قليلاً. ثم أحست باضطراب تنفسه وللحظة ظنت أن هاتين الذراعين سوف تحطمانها مثل زهرة هشة لعبت بها العاصفة.

ـ لا يا سيلينا.. لا أشعر بالفخر ولا بالخجل. ولكن لديّ دافع لأن

www.elromancia.com

أعلمك بأن تعرفي قلبك.. وأن أحررك من وهم تلك الانطباعات عني.. أنت تتهميني بأن لا قلب لي. وتسميني بالبربري. إن لك طريقة غريبة في أن تروقي للرجل. ولست أدري إذا كنت في كل زمن وجودك قد وقعت تحت رحمة بربري حقيقي.

وتعالى صوت الريح فوق صوت ضربات قلبها، وقاومت الضعف الذي بدأ يسيطر عليها ليشعرها بالخيبة على الأرض. وتلوّت بقوة لتحجب عينيها وتبكي بمرارة.

- البربري وحده يتصرف كما تتصرف أنت.. أما بالنسبة للرحمة.. فسأترك نفسي قريباً لرحمة الصحراء أفضل من رحمتك!

وبجهد كبير، هربت منه، ووقفت متجهة نحو تلة المرتفع الكبير. وعلى الفور، القوة الكاملة للعاصفة ضربتها، وأدارتها دون رحمة في دوامة من الغبار المتطاير. وعميّ بصرها، وانهكت أكثر مما يمكن لها أن تتحمل، وانهارت فوق تموجات الرمال الناعمة. وانطلقت الشتائم من فم رافايل وهو يقفز فوق التل. وانحنى فوقها ورفعها فوق ذراعيه ثم حملها متعثراً نحو الكهف من جديد، وللحظة طويلة أخذ ينظر بغضب إلى حمله. ثم هز رأسه وضغط على كتفه.

- حمقاء صغيرة! مما أنت خائفة هكذا؟ وهل تظنين أنني قد أغتصبك رغماً عن إرادتك.

- وماذا تتوقع مني أن أظن؟

- انك لا تدرين شيئاً عن احترام الرجل لنفسه.

وركع أرضاً، وأرقدها، منحنياً فوقها ليكون الرمل عند جنبها الآخر.

- عندما أرغب في امرأة يا سيلينا، يجب أن تستجيب لي بإرادتها. تريد أن تكون لي بقلبها وروحها وجسدها. وعندها فقط، إذا كانت تحبني تماماً كما أحبها.

- إذا كان هذا مثال لوسائلك فلن تجدها أبدا.

- أتظنين أنني قد لا أجدها؟.. ولكنني وجدتها.

- إذن عليك بالصلاة لله كي تخرج سالماً من هذا.

ولم يتحرك، ولم تتوقف نظرته عن التحديق فيها، وكأنما لم تتكلم، قال:

- ولكنني لا أعتقد بأنها وجدتني.. بعد.

وامتدت أصابعه السمراء تحت ذقنها:

- سيلينا.. انظري إليّ.. إلى متى ستعاندين الأقدار وتعاندين قلبك؟

- أنا.. أنا لا أعلم عما تتكلم. الأحمق وحده يعاند الأقدار.

- كم هذا صحيح! وكم تبتسم الأقدار للإنسان الذي يتلاعب بالكلمات عندما تكون مليئة بالحب.

وامتدت ذراعاه من جديد حولها، وقفز قلبها وكأن ذراعيه سوف تسحقانها. ورفعت يدها المرتجفة إليه:

- رافايل.. لا تفعل هذا.. إلا إذا كنت..

- ألا زلت خائفة مني؟

- وهل يجب أن أكون خائفة؟

- وكيف لي أن أجيب على هذا السؤال؟ ما عدا أن أقول إنني أعتقد أنك خائفة من نفسك.

وساد صمت كامل حتى أنها لم تجرؤ على التنفس حتى لا تقطعه وقال لها بنعومة:

- وكم سيمضي عليك من وقت لتصدقي؟

وانفرجت شفتاها في محاولة لتكوين الكلمات، ولكن لم يصدر عنهما أي صوت، وابتعدت أصابعه عن ذقنها، ولم يعد بينهما أي

www.elromancia.com

اتصال. ما عدا سحر تلك النظرة القاسية. ولم يتحرك، ثم همس لها:

ـ تعالي إليّ...

وتجاوز السحر حدوده. وضاعت تمتمتها باسمه في الحب الغامر الذي اجتاح كل مقاومتها. دقات قلبها البعيدة ضاعت، تحطمت ضمن دائرة ذراعيه، والأسر النهائي لعناقه.

وعندما تراجع عنها قليلاً ونظر إليها، كانت غائبة عن الوجود، كانت كالحمل الوديع بين ذراعيه، وخرجت منها تنهيدة، وكأن حاجزاً كبيراً قد انهار من أمامها، وكأن عاصفة بحرية قد رمتها إلى ما وراء قدرتها على الوصول، حيث رقدت منهوكة القوى متلاشية، تنتظر العاصفة أن تنحسر.

ومن مكان بعيد جداً سمعت صوته، وكأنه غير حقيقي، وكأنه صوت المنتصر!

ـ والآن هل تصدقين؟

ـ أجل سأصدق كل ما تريدني أن أصدقه.. لقد ربحت..

ـ ربحت؟

ـ أجل وآمل أن تكون راضياً بنصرك.

وارتخت ذراعاه قليلاً، ومد يده تحت شعرها وأدار وجهها له، ثم نظر اليها بقسوة، والتمعت عيناه.

ـ النصر ؟ يا إلهي؟ أهذا ما تظنينه بي؟ أتصدقين أنني أرغب في أية امرأة التقيها؟ وأحاصرها رغماً عن إرادتها؟ يا إلهي! ألا تستطيعين تمييز الحقيقي من التقليد؟

ـ أنا.. أرغب في هذا.. ولكنني.. خائفة أن.. خائفة منك.. إذا لم...

ـ وهل تخافين الحب؟

وشدّها إليه متنهداً.

ـ كيف استطيع تليين هذا القلب الصغير العنيد وأجعلك تستمعين إليّ..

ـ وماذا تحاول أن تقول؟

ـ أقول؟ إنه ما يقوله كل جزء مني، كما لم أقله لأية امرأة، إلى أن وصلتي إلى هنا. إلى قلبي..

ـ لأية امرأة أخرى؟ أتعني.. الحب؟

ـ أعني الحب، وأنت وأنا.

ـ أنا؟

وفجأة أحست بالتشويش، الفرح الكبير وعدم التصديق والاقتناع كله يدور حول الكلمات التي تفوه بها. ولم تستطع سوى أن تنظر إليه وقلبها يطل من عينيها. وقال لها بإلحاح:

ـ وأنت؟ قوليها.. قوليها.

ـ أوه.. أجل.

والآن، وأخيراً، كل الشكوك قد زالت كذلك الكرامة، بعدما فتحت أبواب طوفان الحب والشوق...

وابتعد عنها ونار الحب تتقد في عينيه.

ـ هل تتزوجيني قريباً؟

ـ قريباً جداً.

ـ وهل ستحاولين أن تحبي قادر وصحرائي؟

ـ سأحاول، ولكن ليس بالقدر الذي أحبك فيه يا رافايل.

ـ الطريقة التي تلفظين بها اسمي بلكنتك الانكليزية الغريبة... لن أتعب ابداً من سماعها. سنعيش نصف السنة في كازابلانكا، في

www.elromancia.com

المنزل قرب البحر الذي عرف الكثير من السعادة. الطيور المغردة سوف تصرخ بموسيقاها لك، وكازابلانكا ليست بعيدة عن شواطىء بلادك، ولكنني سأسعدك بحيث لن تشعري بالحنين إلى الوطن.

ـ لقد أسعدتني الآن، وجعلتني أشعر وكأنني لا أعرف رأسي من أقدامي.

ـ هكذا يجب أن يجعل الحب المرأة تحس. مفتونة بالسعادة.

وتركت رأسها يرتاح على كتفه، واغمضت عينيها للحظة، محاولة أن تستعيد أنفاسها. ثم تذكرت شيئاً:

ـ من هي سوزان؟

ـ سوزان؟ هل تغارين؟

ـ بشكل مرعب. وأمامك الكثير لتجيب عليه قبل أن أقتنع.

ـ سوزان هي من أكثر النساء فتنة وجمالاً. وسوف تقابلينها قريباً وسوف تحبينها.. أنا واثق.

ـ وهل ساحبها؟

ـ أوه، أجل.. أنا لا أخبىء أي سر عن سوزان. وليس سراً أنها قد احتفلت مؤخراً بعيد ميلادها الستين.

وأغمضت سيلينا عينيها وضحكت:

ـ ألم تكن تنوي الزواج بماريون؟

ـ ابنة عمتي؟ أعتقد من الأفضل لك أن تخبريني عن كل الانطباعات التي كونتيها عني.. ما هذا القول عن زواجي بماريون؟

ـ أعتقد أنني سأفشي لك بسر، ولكن ماريون اعتقدت أن جدك يرغب في هذا الزواج، وأنكَ ترغب في تنفيذ رغباته. هل هذا صحيح؟

ـ ليس بالطريقة التي تفكر بها ابنة عمتي الحالمة. صحيح أن

الزواج بيننا كان سيسعده، ولكن لو كان زواجاً عن حب حقيقي. فهو لم يكن أبداً شخصاً قاسياً مستبداً.

ـ ألن تجبر ماريون على البقاء هنا إذا لم تكن سعيدة يا حبيبي؟

ـ وهل تصدقين أنني قد أفعل؟

ـ أخبرني عن بيت التعاويذ، وقصة تلك التعويذة.

واستوى في جلسته، وجذبها إليه أكثر، ثم قال ببطء:

ـ هذا يعود إلى زمن بعيد عندما كان جدي شاباً. وتخاصم مع عائلته. وهرب وهو في التاسعة عشر. ذهب أولاً إلى لبنان، ثم إلى مصر، ثم الجزائر، وأخيراً للمغرب. وأتى إلى قادر، التي كانت يومها مجتمعاً صغيراً، وفقير جداً، ولكن فيها إمكانيات لشاب له رؤيا واسعة. وبدأ بالزراعة، وازدهرت في وقت قريب، ولكنه شارك ازدهاره مع من عمل معه.. وأحبوه. وفي يوم من الأيام، عندما كان مسافراً في الجنوب على أطراف الصحراء، وصل إلى سوق للعبيد. وارتعد، فقد كان يعتقد أن جهود الفرنسيين والإنكليز قد نجحت في إنهاء هذه التجارة غير الإنسانية. ولكن تذكري، هذا كان منذ ستين سنة. وكان هناك فتاة من البربر أكثر من طفلة بقليل، وقدموها للبيع. كانت تحاول يائسة أن لا تبكي، وعندما بدأت العملية البشعة غضب جدي. وكان معه رفيق، رجل أكبر منه بالسن، تاجر متمرس. منعه من محاولة استخدام العنف، واقترح أن يشتريها جدي إذا كان يشعر بالغضب، ولم يكن يظن أن جدي سيأخذ هذا الاقتراح بشكل جدّي. ولكنه فعل، واتى بها الى قادر، حيث أعطاها حريتها وأعادها إلى قومها. ومنذ ذلك الوقت افتتن بها، وبعد بضعة أشهر تزوجها. وكانت بداية لأطول واجمل شراكة. ولكن كان لهذا بعض النتائج. فعائلته قطعت كل صلاتها به، ورفضت الاعتراف بزواجه أو بالثلاثة أولاد

www.elromancia.com

الذين أنجبهم. ولم يعد جدي أبداً إلى فرنسا، ولم يعد يرى عائلته، وقبل أن يموت قال لي إنه لم يندم أبداً.

ـ ما كان اسمها؟

ـ تميمة.. والآن سأخبرك عن عائلتنا قليلاً لتعرفي كيف حدثت هذه الأحداث الأخيرة. والدي كان الابن الأكبر ومارلين كانت الابنة الوحيدة وهي والدة ماريون، وجوليان الابن الأصغر ولفت انتباهه أقاربنا في فرنسا الذين لم يقابلهم أبداً. وعندما بلغ السادسة عشر سافر إلى فرنسا لقضاء عطلة وسعى وراء العائلة، وهناك خضع لتأثيرهم. ومنذ ذلك اليوم تغير. ولم يسامح جدي على دم البربر الذي أعطاه له، وفعل المستحيل ليمحو ذلك عن نفسه، وأصبح مجنوناً ومتعجرفاً، وأخيراً ترك قادر إلى الأبد. ورفضت الفتاة التي أحبها أن تتزوجه. ثم تزوج أرملة شابة في مرسيليا، واستقر هناك ليتولى أعمال زوجها المتوفي. ولكنه أفلس، واضطر إلى اللجوء إلى جدي ثانية من أجل المال. وساعده جدي ثانية، ثم مرة أخرى على الرغم من إرادته بعد أن أقنعته تميمة، التي يكرهها جوليان، إلى أن حرمه جدي أخيراً من الميراث. ثم ماتت تميمة منذ خمس سنوات وعاد جوليان وجرت مشاجرة مريرة بينهما من أجل المال. وعندها فقط غيّر جدي وصيته. كان ينوي ترك قادر لي لأنه يعرف أنني قادر على إدارتها حسب رغباته. وترك أمواله النقدية لتقسم بين أولاده وأحفاده. ولكن المرارة غيّرت رأيه.. مارلين كانت قد ماتت، ولم يجد أي سبب لأن ينتفع بماله من رفض مشاركته في منزله ووطنه.

ـ وماذا عن التعويذة؟

ـ لقد صنعها جدي لتميمة. لم تفقد أبداً اعتقادها بمثل هذه الرموز. وعندما كانت تموت أصرت على أن أحصل عليها. فهي التي

ربتني. إنها الأم الوحيدة التي أعرفها.

ونظرت إليه سيلينا، وأخذت بيده، استعدادها للتفهم عاودها بسرعة. وعادت إليها ذكرى شيء قاله في اليوم السابق:

ـ الليلة الماضية، في الواحة، قلت إن التاريخ يعيد نفسه والقصة تبدو..

وسكتت، وأطرقت برأسها. فهي لن تذكره بالطريقة التي قال بها ملاحظته تلك، ثم تابعت:

ـ ألهذا كنت تواقاً لأن تعود ماريون إلى قادر وتجعلها وطناً لها؟

ـ لا.. الأمر لا يتعلق بماريون بتاتاً. إنه يتعلق بك.

ـ أنا؟ أوه.. أتعني... أتعني بسبب اضطرارك إلى إنقاذي والآن نحن...

ـ والآن نحن ماذا؟

وبدا في لهجته شيء من الدعابة، ورفع لها رأسها.

ـ أنت تحمرّين خجلاً بشكل رائع يا حبيبتي.. ألم تعتادي بعد على فكرة أن تكوني عروساً لقادر؟.

ـ لا أستطيع إلا أن أحمر خجلاً عندما تنظر إليّ هكذا. هل أنت سعيد الآن لأنك أنقذتني وحماري؟

ـ هه.. الحيوان قد يكون مفيداً الآن، إذا لم يكن قد أصبح سميناً وكسولاً ويرفض العمل إطلاقاً.

ـ أوه رافايل.. لديك روح مرحة.. وهذا رائع.

ـ وهل أنا رجل كامل في نظرك، يا صغيرتي؟

وهزّت رأسها بالإيجاب، ثم ادّعت كبرياء زائفة وقالت:

ـ أنت كامل الآن لأنني أحبك جداً.

وضمّها إليه بشدة، وشعرت بالتنهيدة تمر بجسده وهو يهمس:

www.elromancia.com

ـ أرجو أن تشعري هكذا دائماً، لأنني لم أخبرك بعد باقي القصة.. لقد أخبرتك ابنة عمتي عن الحديقة والعروس الإنكليزية التي لم تقبل أن تبقى مع زوجها وطفلها، ولكنها لم تقل لك كيف حصل هذا الزواج، وكيف أن القسمة قدّرته لرجال بومان. فأبي أيضاً التقى بعروسه في ظروف قاسية، كانت راقصة شابة، وتواقة دائماً للسفر. وعندما التقى بها والدي كانت قد أتت إلى القاهرة مع خمس شابات انكليزيات للرقص في ملهى ليلي. ولكنهن وجدن أن عقدهن يلزمهن بأنواع أخرى من التسلية عدا الرقص. ومن الطبيعي أن يتخلين عن العقد، ثم وجدن أن الوكالة التي دبرت العقد كانت وهمية ولا وجود لها. الفتيات الأخريات كان لهن أهل أو أقارب ساعدنهن على الخلاص. واعدنهن إلى وطنهن، ولكن جوليت كانت يتيمة، ووجدت نفسها مفلسة وأمام تهديد صاحب الملهى بمقاضاتها. وعندها ساعدها والدي وخلصها. وأتى بها إلى قادر، وتزوجها هنا، ولكنها على خلاف تميمة لم تستطع أن تستقر هنا. وأظن أنك تعرفين الباقي..

ـ إذاً.. فأنا الثالثة.

ـ دار الدولاب دورة كاملة.. لقد أسرت قلبي منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه. وعيناك تلمعان بالغضب بسبب ذلك المخلوق المسكين الذي أسيء استخدامه، ومع ذلك، كنت دون دفاع في قرارة نفسك. ولكنني تذكرت أمي، وتحطيم قلب والدي، وحاربت مشاعري تجاهك. إلى أن انتزعوك مني وأدركت عندها عمق هذه المشاعر.

وتحركت قليلاً، وقد شعرت بنبضات قلبه تتسارع تحت خدها. وعلمت أن القسمة قد حاكت بالفعل خيوط حياتها مع خيوط حياة هذا الغريب، الرجل الصحراوي المتعجرف. لقد جعل منها سجينته، ومع

ذلك لا تريد أبداً أن تهرب. وتصاعدت نبضاتها استجابة لعناقه إلى أن بدرت منه تنهيدة عميقة وقال بخشونة:

ـ الآن عليّ أنا أن أخضع.. الرغبة تجعلني أريد أن أتزوجك في الحال. أن أعطيك وأن آخذ منك، أن أبحر وأجعل من الصحراء مركبة الشمس تقبّل خباءنا، والريح المجنونة تشهد على قدرنا. ولكن قلبي يقول لي ان هذه ليست الطريقة الصحيحة لحبنا وهكذا، يا وردتي الحمراء الصغيرة المحبوبة. سأعيدك إلى وطنك حيث يشهد العالم قدرنا، وسوف تكونين لي حقاً.

ومد يديه وجذبها لتقف بين ذراعيه الحاميتين لها. ونظرت إليه، ولا يزال العجب في عينيها وهي تواجه الحب، وشاهدت الشمس تلفح وجهه، فصاحت:

ـ لقد انتهت العاصفة!

ونظر إليها طويلاً قبل أن يجيب:

ـ أجل.. لقد انتهت العاصفة!

وشاهدت الذهب الهادىء لرمال الصحراء تمتد حتى تلتقي بالسماء الزرقاء، وعادت إليها همسات كلمات ضارب الرمل. فالظلام والخوف لم يأتيا من الصحراء، ولكن الصحراء كانت تحمل لها قدرها حقاً، والتعويذة الذهبية في عنقها كانت طلسمها بالفعل. لقد جلبت لها السلامة من الخطر وأوصلتها إلى الحب.

ووضعت يديها تحت ذراع رافايل وهما يسيران جنباً إلى جنب فوق بحر الذهب، وهي الآن تمتلك تفهماً جديداً للرجل الذي حرّك قلبها في البداية ثم أسره. وأخيراً أصبحت الصورة في الرمل كاملة وواضحة.

وعاد السلام إلى قلبها، والرضى إلى روحها وهي تنظر إلى

www.elromancia.com

المستقبل. وقالت بصوت منخفض:

«لا تنظري إلى الخلف إلى بحر الليل وأنت تدوسين على رمال الصباح. الله سيكون معك دائماً».

وقال رافايل «ولن تكوني وحدك».

النهاية

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة